الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حسن مطلك

@ketab_n
Follow Me
26.2.2016

كتاب الحب

ظلالهن على الأرض

كتابة حرّة / مذكرات

كِتَابُ الحُبّ

ظِلالهن على الأرض

كتابة حُرّة / مذكرات

حَسَن مُطْلَك

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Twitter: @ketab_n

كِتَابُ الحُبّ

ظِلالهن على الأرض

Twitter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-627-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

Twitter: @ketab_n

تقديم

من بين التجارب العاطفية العديدة التي تخللت حياة حسن مطلك القصيرة، ثمة تجربتا حب رئيسيتان أثرتا في مجرى حياته وإبداعه ومواقفه. تجربتان عميقتان هزتاه بقوة وصدق بحكم عمقهما وصدقهما.

الأولى عشقه لزميلته (ميسلون) أثناء سنوات دراسته في جامعة الموصل في قسم علم النفس، والتي كان يرمز لها في دفاتره بأول حرف من اسمها (م). لقد أحب حسن مطلك هذه المرأة بقوة ورسمها وكتب عنها الكثير في أوراق ودفاتر فقدنا بعضها، منها ما أحرقه هو بنفسه في لحظة انفعال معينة ومنها هذا الذي بين أيدينا. حيث يقول: "تلك الحالات التي منحتني خصوصيةً وتفرداً عن الجميع، إذا لم يكن في موضوع الرسم، فبالكتابة إليها في سجل أصفر شبيه بسجلات التجار المفلسين، وكانت قد قرأته وادعَت أنها حطمت أواني البيت، وصنفَتني ضمن الفلاسفة، وسُررتُ بهذا التصنيف، وتماريت في تحريك اللغة بشكل ألغاز". وقد استمد من شخصيتها العديد من شخصيات قصصه وأبرزها (عزيزة) في روايته (دابادا). لقد انتهت حكاية حبهما المتميز بشكل غامض تقريباً، دون أن تنقطع علاقتهما بشكل نهائي ودون أن يموت حب حسن لها. كان يريد الارتقاء بها إلى ما يريده هو ويعتقد أنها تريد أن تكونه وتصلح له، وكان الرسول بينهما أيام الابتعاد المكاني والزماني صديق مشترك لهما هو (ثابت) يرمز لاسمه بأول حرف منه (ث) والذي انتهى بالزواج من (م).

Twitter: @ketab_n

أما التجربة الثانية فهي عشقه لمعلمة من (نينوى) صادف وأن جمعتهما الوظيفة في مدرستي قرية واحدة تقع على ضفة نهر (الزاب الأسفل) هي قرية (الزرارية) حيث البيئة البِكر من البساتين والدغل والتلال والحيوانات واللهجة الخاصة والعزلة والطيبة والتقاليد الصعبة. هو مدير للمدرسة الثانوية وهي معلمة في الابتدائية. اسمها (هاشمية) وكان حسن يسميها (هدى) فأحبت هذا الاسم وأضافت إليه (حسن) فأصبح (هدى حسن). وكانت هدى خارجة من تجارب سطحية وفاشلة في الحب فوجدت في حسن مطلك الرجل الحلم والنموذج فتعلقت به عشقاً وصارت تخاطر ليلاً ونهاراً لكي تلتقيه. حينها كان هو متزوجاً وله طفلة (مروة)، وعلى الرغم من ذلك فقد قرر أن يتزوج بهدى ولكن المجتمع المحيط بأسره قد حارب تلك الفكرة أو ذلك القرار بشتى السبل مما اضطره إلى التريث والتأجيل دون التخلي عن قراره، بل كان ساعياً بجد لتهيئة الظرف الأنسب له.. وأذكر أنهما جاءا معاً إلى بغداد بقصد أن أتعرف عليها ومن أجل أخذ رأيي ومساندتي في الأمر، فكان جوابي بالطبع: أن القضية برمتها هي من شأنهما وأنني سأكون إلى جانب حسن في أي قرار يختاره.

كانت هدى امرأة مفعمة بالحيوية والبراءة والأنوثة، فياضة بالحب لحسن مطلك ولكل ما يحبه، مؤمنة بما يقول وما يسلك. لمستُ حينها مدى صدق وحقيقية وندرة حبهما. تَركت هدى وظيفتها لاحقاً لتكمل دراسة علم النفس في الجامعة والكلية والقسم ذاته الذي درس فيه حسن حتى تخرجت من المقعد نفسه سنة 1992.. كل ذلك حباً له ولِما أحَبه أو مر به.. وهي لا تزال تحبه بعد صدمة مقتله المفاجئ الذي فرق بينهما إلى الأبد بمرارة وقسوة.

Twitter: @ketab_n

عَـنوَن حـسن مدونته أو مذكراته أو شهادته هذه بـ (كتاب الحـب) وقـسمه إلى قـسمين: الأول تحت عنوان (ظِل الباشق على الأرض) وهـو الجـزء الذي يتحدث فيه عن تجربة حبه لـ (م) ومن المؤسـف أن هذا الجزء قد وقعت عليه، أو سُكبت عَمداً، مادة سائلة لاصـقة أدت إلى الـتحام الأوراق ببعضها وتلف بعض مقاطعها بعد سـيلان حبر الكلمات مما جعلنا نضع نقاطاً بين أقواس (...) كدلالة على ما لم نتمكن من قراءته أو إنقاذه.

أمـا القسم الثاني فيحمل عنوان (ظِل القمر على الأرض) فهو ما جمعـناه من يومياته التي لم تكتمل أيضاً ورسائل متبادلة وحاولنا ترتيبه بـشكل متسلسل تقريباً ليتحدث عن عام واحد من الحب الدافق، تبرز فـيه قدرة حسن مطلك اللغوية وأسلوبه المتميز في التعبير عن العاطفة مثلما في عيش وفهم الحب ذاته، كما نجد بين السطور رأي له في المرأة عموماً وموقفه المناصر لها. إضافة إلى أراءه وعلاقته بالكتابة ذاتها حيث يقول "أنا والكتابة شيء واحد".

إن وقفـة تأمل قصيرة للعناوين التي وضعها حسن مطلك لأجزاء كـتابه عـن الحب، أي (ظِل الباشَق على الأرض) و(ظِل القمر على الأرض) سـتجعلنا وبعملـية تناظـرية بسيطة نستدل على مدلولات التشبيهات أو الرموز التي أطلقها على نفسه وعلى الحب وعلى حبيبته فتكون كالتالي:

الظل = الحب

الأرض = حسن مطلك

الباشق = (م)

القمر = (هـ)

Twitter: @ketab_n

وهنا نتلمس توصيف وتقييم حسن للتجربة الأولى على أنها أكثر عسراً وقسوة من الثانية، حيث (الباشق) من الطيور الجوارح، فنستشعر ما يحيلنا إليه من دلالات التحليق، التحويم، إمكانية الاقتناص واحتمالية الانقضاض في أية لحظة، فيما تشعرنا الثانية (القمر) بالهدوء والشاعرية والنور والسلام.

نعيش مع هذا الكتاب القصير أنواع من حالات ومفردات ولحظات الحب؛ شوق، لهفة، انتظار، مواعيد، لقاءات، قوة، ضعف، ابتعاد، صبر، تضحية، نصيحة، تفاهم، تحليل، تأمل.. إلخ من مزيج مشاعر إنسانية تمر بنا ونبدو في أغلب الأحيان عاجزين عن التعبير عنها كما نريد، لكننا نجد حسن مطلك يعبر عنها هنا بشكل بالغ الدقة والجمال، وربما هذا من بين الدوافع التي حدت بنا إلى اقتحام خصوصياته ونشرها، فهو بكل تأكيد لم يكن ليضع بحسبانه جعل ما نقرأه الآن من يوميات وذكريات و(كتابة حرة) كتاباً للنشر، لأن الكتاب في مفهومه هو جهد وعمل آخر يعمل على صوغه وإعادته ومراجعته أكثر من مرة.. إلا أن قيمة حسن مطلك الأدبية والإنسانية، ومسؤوليتنا عن إرثه، ورحيله المبكر قبل إنجاز أكثر مشاريعه.. هي التي تجعلنا نتلقف ونهتم بكل ما دونه.

هذا ومن الأمور المهمة الأخرى التي دفعتنا إلى كشف هذه التجارب، هو أن حسن مطلك قد صاغ شخصياته الأدبية عن طريق استيحائها من شخصيات حقيقية عاش وتفاعل معها وكان - كما يلاحظ المتابع لأدبه - يوظف العديد من مقاطع يومياته داخل نصوصه الأدبية. شخصية (عزيزة القطان) في روايته (دابادا) وشخصية (سارة) في روايته (قوة الضحك في أورا) وشخصيات بعض قصصه القصيرة الأخرى مثل (تشرين الثالث) و(المذكر والمؤنث) هي مزيج من حبيبته

Twitter: @ketab_n

(م) و(هـــــ) وقد أشار هو إلى ذلك في أكثر من موضع، الأمر الذي ســينفع الباحــثين والدارســين والمتتبعين لأدبه وسيرته ويعينهم على استيــضاح المــزيد عــن شخصياته وأبعادها ومن ثم طبيعة أسلوبه في التوظيف الأدبــي للمعطيات الشخصية الواقعية.

ثم أننا سنقرأ هنا نصاً من جنس خاص فليس هو تماماً بالقصة ولا المقالة ولا هو باليوميات أو المذكرات أو السيرة الذاتية أو أدب الرســائل وحــسب وإنما هو نص مزيج من كل هذا، اسماها حسن نفــسه (كتابة حُرة)، وهي مطبوعة بشعرية واضحة ومعبأة بتجربة إنسانية عميقة متأملة لذاتها، نص لا نجد له تسمية أقرب وأفضل من العــنوان الــذي اختاره له مؤلفه (كتاب الحب)، كتاب عن الحب مكــتوباً بحب. غزل رقيق ومختلف عما عهدناه، أفكار بلغة شعرية ممــتعة، أحداث صغيرة هادئة يكمن كبرها في التعمق فيها، جمال، حزن، غبطة، صراع إنسان مع نفسه ومحيطه، نشدان للتوافق واللذة الروحية والجسدية، تنمية للخير والحب وسير في طريق التعرف على الذات.. على الإنسان..

لقــد حاولنا قدر الإمكان الحفاظ على تسلسل مقاطع السرد، واتــباع التقسيمات الشكلية المرقمة التي اتخذها، مع إدخالنا لبعض الإشارات التوضيحية في الهوامش وفي مطلع بعض المقاطع والرسائل، تــاركين للقــارئ تلمس الحكاية وخيوطها الدرامية عبر هذه اللغة الشعرية والصور الفنية الوافية لهذا المناخ العاطفي والأدبــي الحميم.

هذا ونقدم شكرنا الخاص للسيدة (هدى حسن) على تعاونها معنا في منحــنا بعض الرسائل المتبادلة كي نرفقها، ونشكرها على شجاعة موافقــتها في إشــهار هذا الحب الذي تعترف وتعتز به وتتفهم أهمية معرفته وخاصة أنه يتعلق بأديب مبدع بأهمية حسن مطلك.

Twitter: @ketab_n

ونأمـــل أن نكون قد وفقنا في تقديم هذه الشهادة/الوثيقة/النص الأدبـــي المهم، وأن يجد فيه القارئ المتعة والمزيد من إلقاء الضوء على أدب وشخصية حسن مطلك.

محسن مطلك الرملي

1992 سديرة

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

ظِل الباشَق على الأرض

"... أيها الضعف الذي أسميك امرأة".

هاملت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 1 -

ظِل الباشَق على الأرض

البدء من اللحظة الصعبة 21 نيسان 1985 الساعة العاشرة وعشر دقائق مساءً؛ سيجارة سرية بين رفوف كتب لا تعنيني. بعد أن أعلنت للملأ أنني مقلع عن التدخين.

الأحداث لا تأتي عندما أنظر إلى حياتي وكأنها كدس من الحطب الجـــاف. أبـــدأ بالقريب جداً، وأنتهي في المستقبل.. إلى الطفولة. هذه كلمـــات حُرة، ليست مذكرات أو اعترافات.. إنها لا شيء أبداً.. لا شيء.

حـــل بـــي فراغ صلب عندما اجترتُ عتبة الباب. فكرت بشكل البـــيت الذي سأبتنيه في المستقبل. غرفة من الصفيح تصلح مكاناً للرسم، وهـــي موجـــودة في أوراق المشاريع كصورة نهائية قابلة للتحوير.. لو أنني مشيت في شارع من شوارع بغداد ووجدتُ محفظة مليئة بالنقود، ومزقتُ الهوية الخاصة بصاحب المحفظة.. (...) - صاحب مصنع للنسيج مثلاً[1]- . وبَنـــيت البـــيت، حيث اخترتُ غرفة خاصة ذات شرفة مسائية، لكي تكـــون مكانـــاً للتأمل، بين الكتب أيضاً. ونظرتُ إلى البرّية القاحلة، إلى حـــشرات الـــصيف السوداء. أحتاج إلى فنجان قهوة بالحليب. السيدة لا

---

(1) صاحب مصنع للنسيج: عبارة مشطوب عليها.

Twitter: @ketab_n

تفهـــم إشـــراقات رامـــبو، إنها بليدة كما توقعْت، وكما لم أتوقع أبداً. وحـــدثتُ نفـــسي عن ضرورة القيام برحلة وقد اعترضَت أمي على مبدأ العزلة الخاصة ووعدَت للمرة المائة بأن تحرق الكتب التي جعلتني أبلهاً.

لم أجـــد محفظـــة النقود، ولن أستطيع أن أدفع أجرة الباص، لذا ســـأقوم بالتخـــيل ابتداءً من (الميدان) وحتى (الكرّادة) مع الأخذ بنظر الاعتبار قضية محفظة النقود التي تقيّد عينيّ على أحذية المارة.

لابـــد أن أمـــر بصديق. حين يمر زمن على تنازلاتنا تُحس بأنها كانـــت نوعاً من المكاسب، الاغتباط بالفهم. العروة السرية في روحه. (ث)[1] الـــذي ســـأجده في الكوخ وأطلب منه أن ننحدر إلى نينوى. هناك ضياع قديم. فكرتُ بأنني أحتاج إليه، إلى حركة خاصة في سلوك الانطواء المؤلم. لقد أورثت الشوارع، وكلها معروفة من خلال نهايات أزقـــتها، وحيث لا يسع المتسولون استبدال أماكنهم المألوفة أو طرق الاستجداء بعرض تعابير الشفقة الرومانسية.

نينوى مأوى كبير للوجع السحري، شكلها القديم الهادئ، غاباتها المعاديـــة، أشـــجار معَيَّنة في مكان معَيَّن، سواقي معروفة تحفها جذوع بيـــضاء عالية، وقد دحرج بعض الأصدقاء علبة جعة بمثابة كرة قدم.. يومها كنتُ مغرماً بطهر الماء. وكانوا يدعونني فلا أشرب.

فـــرِحَت والـــدة (ث) عندما رأتني. قبَّلَت رأسي وشتمتني بقصد المداعبة. رأيتها بعيدة جداً مثل قصائد (ريلكه) ومجاورة كعِلم وظائف الأعضاء. إنها تملك شيخاً مصاباً بداء الغضب من جراء مرض السكر، ولكـــنه لم يكف عن معاداة أبنائه لأجل سيجارة.. وكأنه يريد جلب غرامياته السالفة بالقوة.

---

(1) ث: الحرف الأول من اسم (ثابت) صديقه وزميله في الجامعة.

Twitter: @ketab_n

لم يكـــن (ث) طائشاً كعادته، كانت حركاته موزونة بفعل ثقل المـــسدس العسكري، وقد بيّن لي، وصدَّقتُ، لواعج الشوق، بنوع من الـــدهاء.. دهـــاء القادة أمثال (هتلر).. شيء من الإحساس بالقصور، ابـــتداءً مـــن باحة البيت المعبَّدَة بإسفلت الشوارع. شارع!.. هل بني البيت فوق شارع؟!.

إنـــه لا يستطيع إخفاء عداوته لي كصديق قديم تربطني به علاقة فهـــم من خلال التعبير بالإشارة. ويود أن يصحبني، كما اعترَف الآن، إلى (م)[1] المرأة التي اتفقنا على أنها خاصة بـــي. قال: "إنني متفق معها بالفعـــل، من خلال الهاتف، على موعد في مكان عام. كانت تود لو تبكي. إنها مُتعَبَة. اشرب الشاي ولا تتعجل فيكوي فمك".

ورأيـــته يحمل المسدس العسكري تحت قميص بلون الطين. وأنا أعرف بالذات عمر هذا القميص، وقال: "يجب أن أُسدل القميص فوق السروال لكي لا يظهر هذا.. إنه لأمر يستدعي التضحية بالأناقة".

كنتُ متعجلاً، حين اكتشفتُ ضيقه. السماء ساخنة عندما اقتدته إلى الـــبار، حيث امتنع عن الشرب هناك بدافع من الالتزام بالوعد لها، وتحـــت تـــأثير مبدأ قريب جداً من القداسة المدهشة، بالنسبة لي، على الأقل في تلك اللحظة، ولذلك دفع نفسه لمساعدة سائق الباص في جمع النقود من الراكبين، وأقسَم أن يدفع عني رغم اعتراض السائق كعرفان بالجميل تجاه (ث).

ولمـــا رآني عامل البار على شيء من التريث خمن بأنني أحتاج إلى الفستق بدل الزيتون. حدثته عنها.. كيف تموت بطيئاً: "إنك في وضع

---

(1) م: الحـــرف الأول من اسم (ميسلون) حبيبته وزميلته في الجامعة، تزوجت صديقه ثابت لاحقاً.

Twitter: @ketab_n

أفضل، اشرب كأساً واحدة لكي أحس بالعزاء. مُرّة هذه البيرة. أخبرني مـــا الـــذي تبدل فيّ؟.. هل تراني شخت؟.. وأصبَحَت العاطفة باردة بحـــيث لا يمثل عندي اللقاء بامرأة، أكثر من فكرة التكاثر، وأن الغَزَل كـــان ضـــرباً من التهيئة للذة، دافعاً للأنانية البحتة. هذه المرأة المتعبة، الـــبريئة بطـــريقة عاهرة. إنني أقدر إحساسك بها الآن وأنت تقدم لي الـــسجائر لكي تخفي تركيزي في عينيك. بعد قليل سأفهم هذا الضوء، لا تـــستعجل الحديث. هل سقطتُ كما ترى؟. اسمع: يجب أن تذهب وحـــدك. وحدك. ولكن لا تنس تحياتي لها. أريد أن تعرف بأنني كنت معـــكَ وامتـــنعتُ عن الحضور لكي لا أجلب لها الاضطراب، فلعلها محتاجة لك أنت. قل لها أنني كنت في البار. شوّه صورتي لكي لا تفكر بماضـــيها بطريقة مخادعة وتحسب أن ملاكاً كان يسقط مغشياً عليه في غرفة الدرس حين تنظر إليه بنوع من الاستفزاز. يا أخي.. أرجو أن لا تذكـــرني بشيء. هل نتصارح - خذ سيجارة من هنا - لا فرق. خذ. هل نتصارح؟.

أعتـــرف لك؛ بأنها علمتني ما لا يمكن أن أتعلمه من أي شيء أو مصدر، ولكنني أستخسر فيها ضياع هذه الجهود، لأنها لم تجن شيئاً. أنا تغيرت وهي هاربة من مسؤولية القرار. هذه المرأة إما أن تتزوج زواجاً عاديـــاً أو تنتحر. قلت لي أنها تشعر بالتعب والضياع. أعرف بأنها لا تـــريد الاعتراف بالندم حول مسألة خسارتها بـــي. هذا الكبرياء الذي لا تُظهره مع غيري، وهو بدافع من محاولة التوازن، فقد كنت أحدثها عن (نيتشه) قبل أن أسمح لمبادئ عاطفتها بالظهور.. كم أنا غبـــي!.. كنت أقول: "إذا ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط". وكانت تريد أن تعطـــيني قلبها مثلما تُقدم تفاحة ناضجة. وقد وضعتُ اللائمة عليها. قلـــت إنها لا تفهم، ولا ترتقي إلى مستوى الشِعر الدنيء، وقد فاتني أن

Twitter: @ketab_n

كـــل كلمة، كل إشارة من الإشارات التي تمتاز بها، والتي حبَّبتها إليّ، بحد ذاتها قصيدة قاتلة في القلب.. إنها هنا في القلب مباشرة.

تكلـــم يا (ث).. تكلم يا صديقي ولا تنظر إليّ باهتمام لأني لست بحاجة إلى تذكيري بخطأ ارتكبته يدي".

كان يرد عليّ من جانب ارتفاع الفضائل، حتى أحسستُ بتلاؤم الحفـــرة العاطفـــية، رأيته يقترب بوجه رب مسيحي مجرد من الحياة. لحظـــات مـــن الذكرى الهادئة، سرٌّ غريب، جسَّمَته أعقاب السجائر وقشور الكرز.

وحين خرجنا كان الشارع مقفلاً بالبشر، الأجساد اللائذة بظلال المحـــلات، وكان باعة السجائر المفرد جالسين خلف صناديقهم. كان الـــوقت المحصور بين لحظة الخروج وموعده معها كافياً لأن يسمح لي بالـــذهاب إلى حديقة عامة، والتقيؤ تحت شجرة كبيرة، وغسل رأسي تحت صنبور الماء. تمددتُ على العشب، رأيت أعالي الأشجار، واعياً في خَـــدَري، رأيـــت العصافير ووجهه المليء بالإشفاق، حتى أنه لم يفكر بالاعتراض حين اقترحتُ عليه عدم الذهاب معه إليها، بحيث أنه لم يجد صعوبة في تركي داخل مقهى (الشرق). انحدر على السلم وهو يبتسم، ولمحتُ مسدسه تحت القميص الطيني...

فكـــرت أن أنـــصرف إلى الشاي لكي ألعب لعبة التوازن. قابلني شخص في المقعد المقابل، كنت قد شاهدته هناك كلما ذهبت، وجهه الذي يحمل لطخة حمراء مقرفة. كان مشوهاً إلى درجة لم أستطع الصبر علـــى المكوث، حيث انتقلت إلى جوار الشرفة، وارتفعتُ عن نينوى مقدار بناية واحدة ذات طابق.

لا أذكر في حياتي، أن عقلي تحرك بشكل تدميري مثلما تحرك في الـــساعتين اللتين مضتا، وصرت على حافة الغضب، بحيث لو أُعطيت

Twitter: @ketab_n

إنتاج عام من الخزف الصيني لدمرته بسرعة ولذة. انتقلت من مكان إلى آخـــر، إذ المقاعد البيضاء الدبقة التي تسبب لي الخجل من الوجود. أمد ذراعـــي ولا أرغب في محادثة شخص، إن أية كلمة عفوية، دون اللغط الفـــارغ، لابـــد أن تكسر سد العذاب وتحوّلني إلى مجنون حتى درجة القـــتل. أمـــد ذراعي، فلا أستطيع أن أخرج من ثقل الخَدَر، الاختناق الرطب.

تشكلت زوايا الأشياء لتتجه إليّ معزّزَة بعدم اهتمام الناس الهاربين مـــن جحيم البيوت، أو الراغبين في خداع بعضهم على حساب مبدأ الحرية.

بـــدأ الألم المقدس، أسميه؛ إثم بغاء المعابد: كلهم حُقراء، حتى أنا وأنت.

هل رأيت رشاقة العربات الآشورية؟.. مع ذلك، لابد أن صورة الالتواء في نحت (اللبوة الجريحة) كان أعظم من ذلك كله. ما الفائدة؟. هـــل مرّ عصر ما، يمكن أن نعترف من خلال دراسة معالمه أن الإنسان كان ينقصه التعبير عن الألم؟.. هل رأيت أننا ضقنا بهذا الحس، ولما لم نجد منه مهرباً قدسناه، لكي نعتبره قَدَراً فوقياً لنا، يجب أن نجتازه، رغم علمـــنا بـــأن أضـــعاف العمر المألوف للبشر، لا يمكن أن يكفي لكي نفلـــسف الألم على أنه نوع من أنواع المراحل الضرورية للمعرفة، إننا نعـــبر عـــنه بكـــل دقـــة ولا نفهمه أبداً. انظر مرة أخرى إلى ساقيها الأماميـــتين وهي جالسة في وضع الابتهال والنجدة، وقد سقط آخرها ككرسي محطّم. انظر؛ فمها الهلالي، الجوف الملتصق بالجلد، مخالبها التي تقدســـت كخطـــوط في رقيم طيني، لكي تخلّد وهي في لحظة الموت.. وكأنهـــا كانـــت تنتظر المصور قبل أن تسقط بمستوى الأرض بانتظار بكتريا التفسخ.

Twitter: @ketab_n

لا بـــأس، فهذه السهام بشرية، وقد نقلت آلامنا إلى المخلوقات البريئة التي لقّنّاها مبدأ العدوان.

بدأ الألم من (م): لا بديل عن المرأة الشيطانة، للضحكة النادرة، البياض الهلالي في العينين، الالتفاتة الذكية في أنثى الرجل تلك. قالت: "إن لـــديك عالمـــاً خاصاً. لا أعيش مع رجل يُفضّل فكرة عليّ. إنك أكثر الرجال وعياً وغرابة.. لا أستطيع".

كـــنت أبـــني أحلامي على أمل وجود امرأة كهذه، تضع مبدأ العاطفة فوق التجريد، وتقول مباشرة أنها عاجزة عن قبول جملة فلسفية بمعزل عن الحس. ومع ذلك وجدتها، ونسيت حلمي..

لقـــد عـــبرت لي مرات عديدة - كفرصة للانتباه - عن عجزها لبلوغ مستوى المعرفة المنطقية، مرة من خلال هدية تمثل تقويماً صغيراً. كتبَت بعد يومين من التفكير في اختيار العبارة: "إلى أعظم رجل عرفته في حياتي...". وتحت تأثير العجز نفسه، والبراءة الخبيثة نفسها، أكمَلَت جملتها: "وأعز صديق.. إلخ".

كـــل ذلـــك الفهم جاء فيما بعد، فيما بعد تماماً. عندما عملت ذاكـــرتي بـــشكل تدميري بتاريخ 16 تموز 1984 في مقهى (الشرق)، وعلى ارتفاع مترين عن شوارع نينوى.

وضـــعت احـــتمالات العـــذاب، قـــبل هذا التاريخ، غير أن الاحـــتمالات كانـــت أشد وطأة مما توقعت بفعل الثقة الزائدة التي أجـــزت أن أمـــنحها لنفسي لحظة الوقوف أمام لوحة من لوحاتي. وادعيت، بفعل تأثير إعجاب الناس بألواني، بأنني قادر على صياغة المرأة كما أفهم المدرسة الانطباعية: هذه رغبتي، لأنني أرى الشجرة حمـــراء، على خلاف رؤية الناس لها. أو وفق نتائج سريالية (دالي) القبيحة جداً، والتي تمد الأشياء إلى جوانب الفراغ، بحيث تجعل من

Twitter: @ketab_n

المـــوت لعـــبة بصرية، وتعطي الحياة للحيطان في منظر شبيه بمناظر الجحيم الطبيعي.

مـــن جانبـــــي، حاولـــت اعتبار تصريح (م) مجرد تبرير لتقوية علاقتها مع صاحب النظارة السوداء - قريبها الأعور - الذي يضرب رأســـه بالجدار حين يكتشف أنها وقفت مع شخص آخر، وكلّمَته عن غرائز (فرويد)، مع أن ذلك كان جزأً من متطلبات دروس علم النفس، مـــع أنهـــا لم تكن متحمسة (للبيدو) كما لا يهمها أي تفسير منطقي للحياة.

وبعـــد السقوط في واقعية الاحتمالات السابقة، حين حدثت فيما بعـــد، بعـــد سنوات التهيؤ للانتقال: إلى النسيان. عرفت بعد نـــزول (ث) ومن خلال رؤيتي لمسدسه، أنها قالت له: "أنهيت علاقتي بصاحب الـــنظارة السوداء، ولازلت مصرة على قول ما قلته من قبل عن حسن مطلـــك؛ هذا الرجل مرتفع عني كثيراً، لذلك أشعر بأنني مجرد صِفر.. وكـــيف تـــريدني أن أقول: نعم أرغب أن أكون صِفراً؟!. مع الشعور بالخـــزي أمام الرجل. لا يمكنني أن أقدم له شيئاً سوى الفراش البارد. حتى أنني لا أجيد صنع الطعام باستثناء سلق البيض. لا أستطيع أن أُشبع رغـــبة عشرة رجال، وهو يجمع هذا العدد في شخصه. رغباته المتعددة والمتبدلة، انفعالات الفنان فيه، حزنه الذي لا يباح لأحد.. لا أستطيع".

وعلمـــتُ بعد هذا التصريح، بأنني منخفض جداً عن مستوى إرادتي بحيث أصبحت ألمس العدم اللانهائي وأتحسس الفراغ المديد.. إلخ.

قـــبل أن أعـــود من رحلة الفشل تلك، وأقرر أن أعاقب نفسي، وذلـــك بالسفر بواسطة القطار، قرأت في كتاب هذه الكلمات لرامبو: "لم تعدْ، ولن تعود أبداً تلك المعبودة التي جاءت إليّ. حقاً، لقد بكيت في هذه المرة أكثر من جميع أطفال العالم".

Twitter: @ketab_n

تساءل رجل (...): كيف تستطيع حمل هديها إلى الأعلى بتلك الطريقة العدائية؟!.

(...) في آب سوف ألخصها (...) ومضيت..

استيقظت أول صباح بعد تلك الأيام مجهداً، وكان قلبي قد بدأ بالعجز وأخذ يحرضني على قبول فكرة المرض، غير أنني استيقظت نهائياً - كما بدا لي - وعملت ذاكرتي بقوة نووية - كأنما كذلك - بحيث عشت الأحداث الماضية مرة أخرى؛ صوراً واضحة وانفعالات. وقد أدهشتني القدرة الجديدة فيّ، على التحليل والاستيعاب الخارق، وأعتقد أن استمرار هذا الوضع كفيل بإحداث تبدل في حياتي.

حدث ذلك بين عربتين من عربات قطار بغداد. كتبت وأنا نائم، ورأيت أحلاماً لا أميزها عن الحقيقة، رؤى قريبة ملوَّنة. وجاءتني اللغة مثل ومضات البرق القوية لكي أُعبر بدقة عن تلك الرؤى.. وهزتني العربة في وضع الابتسام، جاءت القصائد والألوان إليّ، ورأيت أنني سأموت غداً..

وغداً - حين فتحت باب القطار وحدقتُه - صورتي الكابية في الزجاج، أسمع صوته في الصحراء المظلمة. ثمة هاوية باتجاه الأرض. أدليت رأسي: سأنطفئ، بعد سباحة متعبة في سحاب دبق كثيف. ابتعدت السماء مثل فقاعة سوداء. خرجت رائحة الزمن من هنا (...) رجل ينزل بشكل حريص درجات السلّم بحيث لم نستطع رؤية أقدامه السريعة، ثم يسقط، واسمع صوته في تلك العتمة، يسقط في مكان ما.. على حافة الأرض - بمجرد رؤية - أسندت يدي على خدي ونظرت إلى صورتي الكابية بحياد تام. ليس لي رغبة في (...) حيث الجحيم المؤلم أو الخلود (...) انقضت حياتي كلها و لم أتعلم كيف أكوّر طينةً لأشتق منها بدن عصفور، لم أفهم عناصر حجر ساكن:

Twitter: @ketab_n

كـــيف مـــرّ خط كبريتيّ ونصّف الحصاة؟. لقد أغرتني الهاوية، الظلمة والـــسواد، والإحساس الأخير بغبطة الاختيار، والنائمون خلف ظهري قمزهم القاطرة المزعجة. مرحباً أيها العالم السفلي..

أبصرتُ في ضوء الباب حبتي هديك الصغيرين. ضامرة كمناضل، صفراء بلون القميص. قال لي أحدهم: خذها لك.

وكـــيف أفعـــل وقـــد ضمرت يداي!. سمعت موسيقى (الفضاء spece) لأول مرة. وسقطتُ على الأرض، مجهداً. مشجعاً نفسي على ذلـــك. بقـــيت أتنفس حين جئتِ ووجدتِني ممدداً على المقعد، وقلت: "أتموت بسبب الموسيقى؟".. رأيتكِ شاحبة، جميلة..

أغلقتُ باب القطار، توسدتُ حقيبتي في محاولة للنوم. أذكر أنني رأيـــت مسدسه وهو ينـــزل سلّم المقهى، مضى بكِ على الجسر. قال أنـــكِ كنتِ جميلة، مظللة جفنيكِ بلون كرزي، وكانت ثيابك مبتاعة مـــن قَسم الأَطفال. ولأن حذاءك يخب على إسفلت الجسر المرقّع، فقد كـــان بإمكانـــكِ رؤية الماء من خلال ثقوب رصيف المشاة. ولكنكِ فضلتِ النظر مباشرة نحو حافة النهر: ثمة طيور بيضاء تلقط الرز المنحدر من مجاري المدينة نحو النهر وقد تَخَطَّطَت الحافة بمياه الصابون. غطاها الطـــين الآســـن الذي غطى صخور الشاطئ، وإحساساً غامضاً عندما علِمـــتِ من (ث) بأنني موجود على ارتفاع مترين عن شوارع نينوى. هـــناك ثقوب أحجار ألقاها المارة في الطين. علب البيرة الفارغة، شيء يـــشي باستنجاد الحضارة وغرقها. وحملت مثل النساء حقيبة، كانت بيضاء بحيث تلائم لون الرداء.

لم يستطع أحدكم أن يغير مجرى الحديث عن الشخص المقهور في مقهى (الشرق) ذي النوافذ الخاصة. قلتِ: "إنه قروي، ولكنه لا يُعاب، فليس في طبع شخص يحب، أن لا يعرفَ الغيرة، أي أثر للبداوة، وليس

Twitter: @ketab_n

من شأنه أن يحاسبني حين أختار لون القميص الملائم أو أحادث الرجل الذي أرغب فيه".

وهـــذا الـــذي سميته شهامة مني، بشكل سري، حدث بيني وبين نفسي، لكي أُدرّب الذات على نوع من الرياضة العاطفية، على استناد أنني منقلب ضد مفاهيم الناس، وأفكر بطريقة مختلفة، ولذلك أردت أن أثـــبت هذا الادعاء من خلال الموت عند سماع الموسيقى، أو الحصول على اللذة من قصائد الصديق رامبو..

(...) رأيـــتها في مقهاي حين اجتازت الجسر بنوع من الإعجاز والفـــرح، وكأنهـــا ابتعدت عني بما يسمح لها بالضحك الحر، بعد أن نـــسيَت الـــنكات الـــتي قـــرَّرَت أن تحكيها لـــ (ث) أول ما تلتقيه، وانـــصرفَت، كمؤشر للهرب، إلى الحديث عن متاعب مهنة التدريس وإزعاجات السفر بالباص. "ولكنني ضائعة، ربما لن أتزوّج"..

مرّ زمن كاف لتفتيت الثقة القديمة تدريجياً، رغم ذلك، وحتى في بـــداياتي لم أعتبر إهداء زهرة إليها بديلاً مقنعاً عن القُبلة، ورغم ذلك أيـــضاً لم أُقـــبِلها، لأنني لم أصل معها إلى مستوى إخراج الأحاسيس، واستبدالها بالصمت.

إنه لمن العسير أن أتخيل، أية حكمة اتبعت لإيصال العاطفة إلى حد المعادلـــة الحـــسابية. لا أستطيع أن أفعل شيئاً عدا الإنكار، لأنني أُضيّع بـــذلك ســـحر الكلمات، ومقدرة الشعر على وضع المقابل في منطقة القتل، لو اعترفت لبينت الفشل الكبير الذي تحملتُ نتائجه، على طريقة القـــبائل المنقطعة في مجاهيل الجُزر. لقد كرستُ ساعات الرضا القليلة بالانـــصراف لإعداد كلمات الهدنة كلما وجدت (م) أن من الأفضل إعطائي فرصة جديدة، من خلال اختراع معركة معينة، لكي أتخلى عن مبادئ (نيتشه) في اعتبار الحب وسيلة للتكاثر ليس إلا.

Twitter: @ketab_n

وكانت وسيلتها الوحيدة في تطويعي - وهي تعرف مقدماً عدم جـــدوى الوسائل معي - أن تجعلني أنتظرها لساعات على مقعد معيّن مـــن مقاعد الحديقة، إذ تقول: "سآتيكَ بعد لحظة".. وكانت لحظاتها شـــبيهة بلحظات الله من حيث الامتداد، وكأنها تخمن، أو تطمئن إلى خلـــود عاطفتي ورسوخها. تعرف بأنني لن أغضب، مثلما تعرف بأنني لن أكف عن طريقتي.

لم أنـــس، عـــندما جلـــست على سطح بيت مهجور، في جبهة الحـــرب، في مكان لصيق بمياه (شط العرب)، حيث نصَّف ظل قضيب معـــدني ظهـــري. المكـــان أشبه بشرفة معلقة في الهواء تطل على غبار العجلات المدرعة، وكانت أسرَّة الجنود تتشمس في ممرات غابة النخيل. أوحي إليّ؛ أنني ألمس نينوى بأصابعي، وأن رائحة المطر تتسرب إليّ في الـــيوم التموزيّ الأحمر. أزقة الحارات القديمة، حيث دجلة يشق المدينة عـــنوة لكـــي يفـــصلني عنها. وذهبت إلى الشتاء الماضي لكي أتسلى بانفجار فقاعات الهواء على سطوح غدران المطر.

هـــي الـــتي ضـــربت لي موعداً في الجامعة، وكان اليوم عطلة، الخمـــيس. الخمـــيس.. كانوا يسمون هذا اليوم في التقويم. مرّ شهر لم أحدثها عن شيء، باستثناء استفزازاتها المستمرة في دروس الثقافة المملة، بحيث أن حركة واحدة من عينيها الشيطانيتين الجميلتين، كانت كافية لتعذيبـــي. لم أرَ تلك التعابير في امرأة أخرى. عينا (م) لم يكونا عينين، إنما كائنين، حيوانين. لم أُقدر لحد الآن مقدار اتساعهما، لأنها تحجمهما حسب الموقف، وكيفما تشاء، ولكن الانطباع الذي لا يمكن إنكاره، ذلك النـــزول، الانحدار في طرفيها البعيدين، التوافق الفظيع مع موازاة الحاجـــبين في لحظات السأم المعتادة، ذلك الدهاء المنبثق عن لحظة توتر القوس باتجاهي. الضوء العميق حتى زاوية الأنف.. حتى أن المرء الذي

Twitter: @ketab_n

اعـــتاد على الفضول، لا يستطيع إنكار القدرة الخارقة، أو إنكار الذل الـــذي يـــصيبه مـــن جراء التحديق للحظة فيهما. أي لون.. أي لون لهما؟!.

لقـــد كـــشف لي السواد الغائر، شيئاً من الذكاء أو الاستدراك الـــسريع، هناك: رأيت الظل الدائم لصورتي في حالة الاتساع.. لحظة الاســـتفهام العسيرة، بحيث تضطرني إلى نسيان جميع الأجوبة الممكنة، وتضعني في خيار حرج بين غريزة الحكمة، وبين خرس اللحظة.

إنـــني أفهم الآن جيداً مدى خيبة اللغة في التعبير عن موضوعية اللذة. إن كلمة (لذة) أبعد ما تكون عن نقل الوقائع الشبيهة بالموت أمـــام استدارة العدسة في حالة الاستفهام. لأقُل أنني سمعتُ كلاماً، وكأن ذلك لا يعنيني، ولكنه يدخل في ذاكرتي حد التفسخ. إنه لأمر كفـــيل بالشهادة أمام مفردات الفسيولوجيا البسيطة. ليست مجرد (عـــين).. إنها الحياة مكرَّسة في لحظة الانتباه إلى دخول الرمح بطيئاً بطيئاً في القلب.

وهكذا حين أردتُ التعبير عن فهمي للإبهام، قلت أنني أعي وقائع مـــوتي كمـــا لو أنني أُنفذ خطة صغيرة بذلت في إعدادها زمناً يبدأ من عصر السلالات وينتهي في يوم القيامة. مع ذلك فإن الأمر محال.. محال مطلق.

وهـــي التي جاءت بمعطف برتقالي، ومظلة ملونة خاصة بالنساء. كانـــت وقفـــتي تحت شجرة اليوكالبتوس كافية لأن يفهم أي شخص عـــادي بأنني محايد عن كل مواضيع الحياة الممكنة، وأن علائم وجهي تفـــضح العـــدم المخيف، باستثناء لعبة الانتظار، التي آمل أن أجد فيها بعض العزاء، على اعتبار أن ذلك الأمر سيثبت طرفاً مني بمثابة مشجب حتى لا أنـــزلق إلى هاوية الفراغ.

Twitter: @ketab_n

رأيت خطوتها في طرف الشارع الخالي. كانت هادئة، ولا مبالية بوحشية المطر. هي التي ضربت موعداً لي، أؤكد لنفسي لكي لا أسقط في الحَـرَج. يـوم نـزهة الكلاب على التلال القريبة المعشبة. رأيت ابتسامتها الحزينة، فعرفتُ مقدماً أنها لا تريد قول شيء محدد أبداً، وأنها لا تعـي الـسبب في تجديد الصراع بيننا، وأن الذي حدث نوع من التحالف على استمرار العداء.

كـان الأجدر أن أنصرف إلى إكمال قراءة (الصخب والعنف) لكي لا يمنعني الوضع القادم من إغلاقه قبل الصفحة (60) وإعادته إلى رفوف المكتبة.

جـاءت لتؤكد أنها لا تحبني، قالت: "أنا التي طلبتُ منك المجيء وجئت كما ترى، لكي أقول بأنني لا أحبك". ولكنها أكدت بنوع من المواربة المكشوفة على أسلوب الغزل الخاص الذي أطرحه، أسلوب غير مألوف للوسط الاجتماعي الذي يتعاطى الحب كطريقة لفك الأزرار، أو قـتل الفراغ بدل الانصراف إلى النوم الممل. وإنني – على حد قولها – أمتلك نوعاً من السحر الذي لا مَهرب منه، رغم اللامبالاة المصطنعة بالانـصراف إلى تأمـل المطر، أو النظر إلى صحوة تكشف عن سماء شديدة الزرقة. وفي اللحظة التي بدا لي، أنها غير مندهشة تجاه برودي، كـنت أفكـر بمعنى الربط المنطقي بين رائحة فضلات الطيور، حيث هـيَّجها المطر، وبين ارتفاع منسوب الغريزة الجنسية، وبدا لي أنني لن أعـي الحـركة التي ستحدث بعد قليل، حيث ألتفتُ فجأة لكي أضع ذراعيَّ تحت إبطيها.

ضـحكَت وجـرّتني من طرف المعطف، وأطفأت مظلتها لكي تـندس تحـت مظلتي. لامس رأس نهدها الصغيرة إبرة مرفقي الأيمن، فارتجفـت إلى درجة يصعب فيها احتمال اللذة حتى أطراف الصراخ..

Twitter: @ketab_n

ولكـــنني فضلتُ التدخين بحركة تعطي الرجل صفة متميزة عن النساء. بكـــثير مـــن الغرور، بذلك التخريب السري لعاديّة العاطفة. ونفختُ الـــدخان لأراه ذائـــباً في القطرات المضيئة. ضحكَت: "يا إلهي.. أنتَ رجـــل عجـــيب، رائع..". لقد ألغَت هذه العبارة الكثير من أساليب الزيف التي نتبعها لاصطياد الحقيقة بعد جهد كبير، هي في غنى عنه.

انفـــرجت عيناها عن ضوء وضع لي واقعة ولادة أطفال العالم في الخط المستقيم لمستقبل البشرية الخيّر مباشرة دون أي تمهيد منطقي.

تأملـــتُ (م) – لم أتأملها – غير أنها فرضت عليّ صفوة الوجود الرائع وألغَت، بكل بساطة وبحركة من رأسها ذي الشَعر القصير المبلل، كل تفاصيل العدم البارز..

قالـــت: "جـــئت لكـــي أقول لك، بأننا لن نكون حبيبين أبداً، أتفهم؟.. لا أُحبك".

اقـــتحمَت ســـيل المزارب وبطَّت حذاءها الجميل في بركة الماء ومضت. وتبعتها حتى موقف الباص. صمتنا طوال مسافة الطريق، لكي أشعر أنني خسرت حين أبصرتها خلف زجاج السيارة، وكأنها لم تعلم بوجـــودي.. مضت هي، ومضيتُ إلى المكان الذي كنا فيه لكي أشم رائحـــة فضلات الطيور، وأشعر بحاجة ملحة لاحتضان عمود الضوء. قلت بصوت مرتفع: لقد مضَت ببراءة حَجرٌ ساقط.

بقـــيت على السطح المهجور، أنظر إلى تراب العجلات المدرعة، وأحاول أن أفهم الجهد الذي بذلته لأجل إصلاح نفسي مقابل خسارتي للآخرين.

تلك المليئة بالبكاء. نادرة. (م) التي تتكوّن وتقفز إليّ من اليوميات لتمـــثل أمامي وتبيّن لي أنها تميل إلى حيث أشير. تُفجر عاطفتي إلى حد الشعور بالأبوّة تجاهها.. أليست شريرة مثل زهرة صفراء؟.

Twitter: @ketab_n

تلـــك الـــتي قالت: "إنني أخاف من اللذة". وقلت: أريدكِ هذه الـــساعة لكي نلتصق حتى وقت متأخر من عمر الأرض، وعلى عظامنا المتشابكة على سطح التل، تنبت شوكة رائعة. حيث تبتل العاطفة برذاذ مطر الفجر، حيث تطرح الأغصان أوراقها اليابسة في خطوط السيول، ويـــبدأ فصل جديد أُسميه: فصل القوة. أ، ب، ج، ابتدائي بتعلُم مبادئ القوة والجمال من الشطرنج، من طريقة تصفيف الشَعر، من الضحك، ومعـــرفة مواقـــيت وجوب البكاء، ومن طريقة ارتداء الجورب.. من الشعِر أيضاً يجب أن نتعلم فن الكسل.

علـــى أيّ حال، ظلت الأمور التي تعذبني والتي هي مثار قرف في بعـــض الأحيان، بمثابة لغز لدى الأصحاب والأعداء معاً، وظللتُ أُبعد فكرة أنهم يتحدثون عني، فيما كنت أحسهم من خلال الإشارات، أَو المـــواجهات الصريحة المغلَّفَة بالمجاملة. وكانوا في كل ذلك يدفعونها إلى الجـــدل الـــشعبـــي بقـــصد تدريبها على خرق الأدب وعدم الالتزام بالـــدروس، وذلك بالإغراء بواسطة وجبة السندويج بهدف التحريض على زيادة الوزن، مستغلين اصفرار وجهها ونحول قامتها، أو من خلال تقـــديم الخـــدمات لهـــا دون مقابل، مثل كتابة التقارير أو نقل وقائع المحاضـــرات المضروبة، أسوة بـــي، وهي تعرف أن المقارنة بوضعي أمر فوق المنطق، لأنها كانت تحييني من وراء زجاج المرسم، وسط الجماعة الـــضائعة، حـــتى تزداد عندي درجة الإحساس بالفظاعة والغيرة كيما أصـــبّها ألواناً حارّة على اللوحة، وهذا الأمر كان سبباً رئيسياً في تأخر نضوج ألواني، واكتسابها الرزانة التي يرغبها الأستاذ (ض)[1] وفق خبرة خمسين سنة مشفوعة بالدراسة في إيطاليا، والاعتراف من خلال الجرائد

---

(1) ض: الحـــرف الأول مـــن اســـم (ضـــرار القدو) الفنان التشكيلي العراقي المعروف وأستاذ حسن مطلك للرسم في جامعة الموصل.

Twitter: @ketab_n

الرسمية بوجهه، على أنه لو وضِع في لعبة الكلمات المتقاطعة فلا يكون الأمـــر عـــصياً على شخص عادي أن يعرف (ض) من خلال صلعته المـــشهورة. ولكنه كان يقدر ثوراتي اللونية الساذجة، من خلال معرفة ابتدأت بشكل أولي لديه بأني أحب ابنة صديقه، برغم كل الارتفاعات المـــبررة من قبلي والتي تعتبرها (م) غروراً لا يليق بـــي، إذا ما قيست الأمور بدحر شخصيتها لأنها لا تجد شيئاً يدفعها إلى فعل ما أفعل سوى حبـــــي لها وإذلالها لي. ولذلك فإن غرورها يبدأ عندما تقتل غروري، وتعـــبر عن هذه اللذة بطريقة الضحك المرتفع الغارق بصحبة الآخرين، وتتمادى حتى عندما أصبح الضحك، الذي اعتبرته مزيفاً في البداية، سمة لا يمكـــن أخـــذها دونه، تتمادى في استخراج لحظات انكساري إلى الوجـــود العياني بدليل التجائي إلى مسند الشباك بحجة مراقبة المطر، أو الـــصمت في الـــزوايا بحجـــة التفكير بموضوع لا يخصها، غير أن علم الآخـــرين لم يكن يتجاوز التأكيد بأنني حين أكتب واجباً مدرسياً عن ديـــدان الانكلستوما فإنني أذكرها كعلّة وجود في بداية البحث أو في الهامش.

واســـتمر هـــذا الأمر حتى زمن تبدل أحاسيسي الحالية من الأوراق اليابـــسة التي تطرحها أشجار الخريف بمصاف الرجفة. لم أكن أملك القوة الكافـــية لذكـــر خجلي من النظر إلى الطبيعة باعتبارها وجوداً مدافعاً عن الـــزيف مـــن جراء خدع البصر، وحتى زمن اعتبار تلك الأوراق شيئاً لا معـــنى له مقترناً بفكرة اللانهاية المنطبقة على إحساس (...) النظر إلى العالم بعـــد إلقاء قنبلة نووية. كل ما أراه نحاسياً ممتداً إلى ما لانهاية، حتى أنني لا أجرؤ على الزعم بوجود خط أفق يكسر بصري: إنه فراغ لا حَد له.

لا يمكـــنني أن أنسب كل نتيجة وصل إليها تفكيري إلى إعراض (م)، مع أنني أميل إلى ذلك أحياناً، وأقول: "هذا حسن، حسن جداً".

Twitter: @ketab_n

في سياق التبرير الذي لا يخدعني، إذا ما تساوت لدي كل الأشياء: الحياة والموت، الصدق والكذب، وهذا ما يفسر انمحاء إحساس الرهبة أمام تباين الألوان بنتيجة الكف عن الرسم لمدة عامين خلتا من تاريخ كتابة هذه المفردة.

أعود إلى تبرير الغرور، أو الذي سميته غروراً، رغم أني اكتشفت حِيَل الذات في صناعة الدفاعات، ورغم أن الأمر صار عديم المعنى.

تمثلت بالطفولة، إذا تذكرت أنني فكرت، منذ الخامسة من عمري، بأنني أختلف عن الآخرين، أو يجب أن أختلف عنهم. ولا يمكن استحضار ذكرى بعيدة بدون التغطية بمفردات مُبهَمة، شأن الطفولة السحرية التي لا يمكن التعبير عنها بحس عدمي الآن. هكذا، هل أذكر (الحصار)؟ كانوا يسمون بيتنا بهذا الاسم، ربما وفق طريقة خاصة في البناء، إنه حصر حقيقي ذلك الذي دفعني إلى اللجوء إلى حنان أشجار الغَرَب الوحيدة، مع وجود إحساس بالخجل من النظر إلى الأخت، فقد كان إحساساً وراثياً عن طريق لا يمكن نسبته إلى الكروموسومات، لأن زمنه أبعد من أن أتمكن من تحديده، أبعد من السنوات الخمس بكثير.

أحسب أن سماء البشر كانت سماء خاصة بالفقراء لأنها صافية تُقرِّب الله ببراءة الاعتقاد بإمكانية الاستجابة للأماني حتى بالنسبة للجيران الذين اعتبرتهم آنذاك جزء من عائلتنا عندما يتبادلون معنا أطعمة العشاء، وأغلبها من الذُرة والخُباز، فلا أستطيع الادعاء بأنني أكره هذا النوع من الطعام لكي أدفع والدي إلى ضربي، وذلك بارتكاب حماقة، بهدف حرماني من العشاء – إذا ما استثنينا الحلاوة المُعلَّبة في الخشب الدائري، وهذه في رمضان، مع القيّسي[1] اللذيذ –

(1) ثمار المشمش الجافة.

Twitter: @ketab_n

إنما لأجل الانصراف قبل الآخرين إلى الفراش والبدء بالتخيّل، أو البكاء بطـــريقة تدفـــع جدتي إلى الإشفاق عليّ، بحيث تندس معي في الفِراش لـــتكلمني بـــ: كان يا مكان، عن أميرة الحُسن والجمال، ابنة السُلطان التي خطبها حمّال.. إلخ. وأنا أنظر إلى الفانوس، وقد نسيت الجوع لأنني رحلتُ إلى موائد السُلطان، ثم أجد (...) جدتي قد نامت قبل أن يُسلّم الحمّـــال علـــى بوّاب القصر، فأنصرف إلى رسم دوائر بسبابتي على التراب، بين الفانوس والوسادة.

لمس الغبار الناعم - إن شيئاً ما ينتصب تحتي، لكي يصير دافئاً - عـــشرات الدوائـــر في رأس الإصبع، لمسة تجلب لي الخَدَر. يحلو لي أن أسمـــيها بـــ (دوائر النعمان) الفائقة في الذوق لطقوس تناول الحلاوة في الخبز أو سرقة قطعة من السُكّر الصلب، وفي هذه غالباً ما أُكتَشَف.

أعـــرف أنها من أصعب الأمور، أن يُكَوّن المرء فكرة محددة عن طفولـــته، عندما يعتبرها العاديّون زمناً مضى ليس له أهمية، وقد اعتبرته أحد العوامل في سقوطي تجاه (م) أو سقوطها تجاهي حتى عندما رأيتها قبل عدة أيام بعد تاريخ ثلاث سنوات من القطيعة، وقد أصبحَت أكثر بهـــاءً ونُدرة، وأكثر شجاعة في النظر إلى وجهي مباشرة، وقد ترّسّب الشحم الأنثوي في مناطق الإثارة، بما أنني خمنتُ بأنه بعيد عن استثمار رجـــل غريب. ولكن.. لست أستبعد حدوث ذلك بعيداً عن تحريض الأكف المعادية للجنس المغاير لها. وهكذا كانت غامضة - رغم إعلانها عن صراحة وقحة بحجة زوال الرقيب - تغوص في أسرار تخص رجلاً ســـواي، في حين أن وقع الخسارة يخصني أنا، وقد محوت الأمر بسرعة أمـــام الصديق (ن)[1] عندما ركبنا الباص باتجاه أربيل، وهي جزء من

(1) ن: الحـــرف الأول مـــن اســـم (ناصر محمود) صديقه الحميم منذ الجامعة وشريكه في المحاولة الانقلابية حيث أُعدما معاً سنة 1990م.

Twitter: @ketab_n

عوامل الإرهاب، أحد إمكانياته، التي استخدمتها لتعقيل ذاتي وإسكاتها عن الصراخ العلني "العينان، انظُر إلى عينيها. انظر.. هل تعتقد أن امرأة ما، يمكن أن تشابهها في الحدود الدنيا للتشابه؟.. انظر إلى عينيها..".

هذا كل ما قلته وسكتُ.

انعكَسَت حدود الفهم، عندما أعود إلى مسألة الكتابة، وهي كل شـــيء بالنسبة لي: الممكن وضده. وعندما (تصبح العادة أسلوباً بمرور الزمن) على حد قول (بروست). كل ماعدا الكتابة باطل تماماً، أو على الأقل لا أهمية له.

إن (م) تدّعـــي بأنهـــا بتقديمها أساليب الخسارة إليّ، فإنها قد منحتني الكتابة - وقد كانت الكتابة، كما أعلم، عاملاً من عوامل خسارتي لها - وإني أوافقها إلى حد ما. غير أن الاستعدادات لهذا الهم ابتدأت منذ (دوائر الـــنعمان).. شيء لانهائي أخشى الحديث فيه، لأنه (يجعل الوجود ممكناً) حـــسب فهمـــي لـــــ (كامو). ولكني أحاول، بما أنني أقوم الآن بالفعل الأكثـــر رهـــبة وعدواناً - الكتابة - أحاول أن أقول كلاماً متقطعاً بين السطور لحاجتي إلى تفتيت التركيز في هذا الجانب، لأن البحث المستمر فيه أمر صعب ومُرهِق، إذا لم يكن يقدم إمكانات الموت لأجل حياة الكلمة.

لقـــد سُقت إلى هذا المرض عنوة بدافع من قوة خفيّة لا أميل إلى إعطائهـــا صـــفة الغيب، لأنها مفهومة (...) اهتمامي بها، ولأنه كان بإمكاني تجنبها في أي وقت.

هذه الأيام الشبيهة بالعذاب، شبيهة بكل جهد ضائع. أعتقد بأنني توصـــلت إلى حافة بمثابة شرفة لرؤية نفسي ومحاسبتها بطريقة التحليل الـــذي يحوّل كل مقدس غامض إلى ذرّي عياني، إذا لم أقل تافهاً. وقد هـــربتُ كـــثيراً من تفسير هذا الأمر في كل مرة كان يطرح من قبل الأصدقاء: "لماذا تكتب؟.. ما نوع الكتابة؟".

Twitter: @ketab_n

و لم أكن أجرؤ على إعطاء أي جواب تحت تبرير عدم الفهم الذي أعتـــبره الآن دفاعاً نفسياً. لا يوجد شخص لا يفهم الشيء الذي يهمه ويؤذيه، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار كل عوامل الغموض التي تجعل الحياة مُحبَّبة وتحتفظ بالكذب باعتباره أحد إمكانات الوجود الضرورية.

أردتُ من خلال هذا الاعتراف أن أقترب من المواجهة، وأفترض أنـــني صـــادق - بدرجة من اليقين - على أساس أن تلطيف الوجود اليومـــي بالكذب لم يعد يهمني في شيء. وكانت هذه الكتابة التي لا تنفـــصل عـــن عملية رفع القلم والتدوين، أو طريقة جلوس، بمثابة حد نهائـــي محـــتمل كسكوتي وهروبـــي الدائم من السؤال المألوف: لماذا أكتب؟؟؟.

حـــلّ الـــوقت الآن للموقف الذي لا أستطيع فيه منع نفسي من مـــواجهة نفـــسي. وحتى الآن أحس بأنني غير عميق إلى درجة كافية كجزء من متطلبات الشجاعة.

أيـــة لـــذة من الكتابة؟.. أي إنصاف؟.. إن السؤال يتجدد بقدر توجهـــي إلى الآخرين. أعني الحصول على تقدير اجتماعي من خلال النشر، أو ما يسمى لدى العامة بـــ (الشهرة).

مـــن ناحيتي لم أحس بأهمية الآخرين في استمرار هذه العملية، وأكـــاد أجـــزم بأنني أفكر بطريقة عدائي للقارئ واضطهاده. وإذا اعتـــبرتُ الأمر مجرد تكوين ضدي - ناتج عن رغبة لا أجرؤ على الاعتراف بها حول أهمية رأي القارئ فيّ وتقديره لي - غير أن الأمر لا يوفر لي الحماس اللازم بدون نتائج فعلية. إن مسألة النشر مسألة ثانـــوية، إذا لم أبالـــغ وأقـــل غير مرغوبة أبداً تحت ضغط عوامل موضوعية محيطة، تجعل من مقياس الصدق، مقياساً رئيسياً. ما معنى الصدق؟.. أو الصدق في الكتابة.

Twitter: @ketab_n

يجـــب أن لا أنسى أبداً أن حياتي الخاصة وسلوكي وهدفي، وكل ما أقوله أو قلته، أنويه أو نويته وأنتهي، في فعل التحقق أو عكسه. كل ذلك ينبع من (الكتابة).

لابـــد من فحص الصدق الذي أعنيه في هذه المرحلة بالذات. لم يعـــد للكـــذب أهمية باعتباره أحد روائع الوجود لأنه يقلل من صلابة الواقـــع المُسَنَّن، أراه يسقط الآن مقابل ربح العدم والإحساس به. إن زوايـــا الأشياء محسوبة إلى خدعة التنظيم تحت ذريعة الجمال. اختراع أســـاليب الحـــب أو تنظـــيم وقت للدعارة، تدعيم القشرة، التصفيق للأزياء: لقد سمعتُ صوت تلك الأشياء (العدم فيما بعد. إنه هناك. لا يخـــصني مـــع أنه يتناول الآخرين. الموت من حولي ولكنه بعيد، وإن كلمـــات العزاء كافية لتطميني بأني سأبقى هنا. سَمّه وجوداً مزيفاً إن شئت، ولكنه ممكن تحت ستار الخدعة).. هذا ما قاله لي الوجود.

أمـــست قيمة الكذب مثل قيمة الحياة اليومية التي استغنيت عنها، وأســـقطتها أســـوة بكذبها الجميل. كنتُ أعلق آمالاً كبيرة في إعطاء نفـــسي نـــوعاً من الحق في تبرير الأكاذيب، نظراً للاحتمال الأكيد في تقلـــيل أثر الكوارث، والتغاضي عن كل ما هو مزيف، إلى درجة عدم الخجل من تكرار الكذبة على أكثر من شخص حتى أصدقها أنا نفسي كحقيقة، وأقنع بأنها كانت جزأً من تاريخ حياتي.

لا يمكـــنني الاعـــتقاد بزيف الآخرين، إذ ليس من الضروري أن أحملـــهم علـــى اتـــباع طريقتي في الكفر بالموجودات إلى حد إنكار حقيقتها، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد وضعوني في قفص المحاكمة على أنني (مصدر زيف الحياة كلها).

الكذب مصدر من مصادر وجود العالم، إن سقوطه مشابه لانطباق السقف على الأرضية وتحطمه في حالة الاعتقاد بعدم أهمية الأعمدة.

Twitter: @ketab_n

إنه مصدر للعبد لكي يظل عبداً، والعاشق كيما يغذي نار الحنين إلى ضـــرورة الجـــسد الآخر. إن كل شيء كفيل بإزالته كفيل بمحو طقـــوس الـــضرورة في جلسات الشاي واختيار ربطة العنق من حيث ملاءمـــتها لفـــصل السنة. ولست أدعي أية غبطة في إزالته من حياتي بطريقة إكراه الذات. وبما يقابل جعل الحياة ممكنة فقد اخترعت عدمي الخاص الذي لا يعادي الكذب كرذيلة، وإن أهميته أصبحت - لديّ - كأهـــية حصاة في زمبابوي. إنه لعبة من لعب الموازنة التي تخليت عنها في مساند الكراسي ومقابلات الأشخاص.. إلخ.

إن للموازنة المقيتة كلاماً لانهاية له.

إن الحـــصول على التقدير الاجتماعي في الكذب أو الكتابة على حد سواء، قد سقط. كيف سقط الكذب وبقيت الكتابة؟.. ما الذي يجعلني أكتب؟.

تـــساءل أحـــد الأصدقاء، إذا كان يحق لنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال؟. لماذا نكتب؟ منطلقاً من اعتبار أننا لسنا كُتاباً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة. وأنصتُ إلى تساؤله باهتمام، وهذا الاهتمام إجابة كافية. هـــل نلغي كل هذا الهَم الذي عَذَّبنا في السنوات المنقضية وسيعذبنا إن كـــنا نفترض العيش مدة أخرى؟.. ألا يحق لنا أن نبحث في إمكانات هـــذا العـــذاب، ونعتـــبر أنفسنا منذ الآن متحملين مسؤولية الكاتب الكـــبير؟. أن نـــضع المقياس اللازم ولو على سبيل الافتراض، لغرض التحقيق بأننا في عِداد الكبار. إن السؤال الكبير - المهم - يجب أن يجد جواباً يغطيه.

وحـــين انبثق لي سؤال آخر عن الهدف، قلت لنفسي: "يجب أن تـــصل الكتابة إلى مستوى الموسيقى". تعبر عن نفسها من خلال موتي أنا. لا حاجة بـــي إلى ذات منفصلة عن الكلمة، سواء كانت الكلمة،

Twitter: @ketab_n

في التعبير البنيوي، كسياق، تمنع عن التجريد والموت المنفرد والوحدة. إن الجملة بحاجة إلى الكلمة لكي توجد حيّة مع الجُمل، إن الكلمة أهم من الجملة، وهذا يعني كل كلمة ولا يعني كلمة معينة.

من الصعب، في هذه اللحظة، الإقرار بالاستتباب الأسلوبي، إذا ما أُخذ الاعتبار التاريخي في الحساب، الكفاح المستمر لأجل الإحساس بملائمة الثوب، بحيث يكون صالحاً لكل اللُعب والحركات وجلسات الصالون مثلما هو صالح للكدح في قطع الأحطاب. إنه يُحرض على خيانة الذات بانتهاج عادات نتيجة استفزاز الفكر لكي تظهر في طريقة المشي والخجل الاجتماعي. أو لكي أبدو عكس ما أريد، في انتهاج عادات التدمير والشذوذ، على أساس أن ذلك يحق للكاتب ولا يحق لسواه.

هكذا لا فرق بيني وبين ما أفكر به.. بما أنني سقتُ نفسي بالقسوة إلى الاعتراف بعدم الكذب. أنا والكتابة شيء واحد.

يبدو لي أن الأمر مرهون ببعض عمليات الإحصاء الشبيهة بالصراع الداخلي. انتظار شخص أو قطار نعرف أنه لن يأتي، ومن هنا فإني اعتبرتُ أية إجابة تخص مبدأي في الكتابة، هي خيانة للكتابة نفسها.

ما دمتُ لا أملك أية فكرة تفسر لي محاولات الانتحار أو احترام العدم، أو فكرة تشرح الصفات اللاهائية للفعل: (كَتَبَ، يَكتُب) حتى درجة الإحساس بالعبودية لهذا الفعل. فإن التفسير يأتي على شكل ثورة ضد الكتابة نفسها. ولكي تدمرني أكثر وتستعبدني كما أشتهي، حين لا أملك وسيلة لقتل الكلمة أو إخضاعها.. إننا - أنا وهي - نتبادل الصلاة لأجل بعضنا، نعذب بعضنا بعضاً، ونرتكب جريمة الغفران في لحظات الضعف الشبيهة بالهزيمة، وهكذا أعادي القارئ، لكي أُصعده إلى مستوى منازلتي، على أساس أنني قوي.

Twitter: @ketab_n

أُدمره لكي يدرب نفسه طويلاً على رد ضرباتي، على أساس أنني أرفض نزال الضعفاء، المنطق الشبيه بنزال الفيل والنملة. أما إذا كنتُ نمراً، فإني سألتذ بتخديش أشباهي لأجل استمرار النوع، المسمى تجاوزاً بـ (النُخبة).

إن أكثر الأشياء عذاباً، تلك التي تتجه مباشرة إلى الموضوع الذي يُعَذِّب. غير أن نفسي الطيبة تقَسم عذابها أمام تعدد المواضيع، كإيجاد نوع من البدائل، أكثر تلك، التي يبعثها الحمقى من رغبة فيّ لمواصلة عدائي. وتتحمل تلال نينوى جزءً من العزاء، قريباً من الأفق، هبوط الذكريات البليلة كوحدة بورجوازية في أشد حالات الإيلام، الغربة بجوار نوافذ زجاج مرسم الجامعة الكبيرة، عندما ألوذ لكي أنتظر (م) وأعرف أنها تضاحك غيري حتى نهاية الوقت.

كل شيء لا يعادل استواء حاجبيها كتعبير عن الذنب، أو لحظة من البكاء، رأيت الدمع: أبعد المياه عني. انكسارها حين أحس بأني انتصرت، إذ لا شيء أدل على تأثيري فيها غير هزائمها. ما لم تقدم لي نوعاً من المتعة لحظة بكائها، فإنها تغريني على الأقل. ولم يكن بكائي مهماً لأنها تعرف كيف تميز مشيتي على الأقل، حين تراقب الطلبة يهبطون التل، وأشعر بها تراقبني فأجاهد لكي لا تذهب قدماي إلى الجانبين.

تلك الحالات التي منحتني خصوصيةً وتفرداً عن الجميع، إذا لم يكن في موضوع الرسم، فبالكتابة إليها في سجل أصفر شبيه بسجلات التجار المفلسين، وكانت قد قرأته وادعت أنها حطمت أواني البيت، وصنفَتني ضمن الفلاسفة، وسُررتُ بهذا التصنيف، وتماريت في تحريك اللغة بشكل ألغاز، اقتربَت (...) عن قصد أحياناً. لم يكن بي علم عما يجب أن أفعل عند حضورها، حيث تطير تلك اللغة. وقد ظل

Twitter: @ketab_n

الاعتـــراف الأول، الـــبوح الأول، هو الوسيلة المغلوطة في وضع خط النهاية.

عـــندما جاءت متأخرة وجلسَت أمامي. امرأة صغيرة بكثير من اللامـــبالاة الـــتي أعطـــتني توهجاً لاحتقار الفقر، أو مضايقة الملابس. بـــشعرها القـــصير التبني وبياض وجهها وساقيها المُعَذّب. كانت تثرثر بكل اتجاه، لكي تستقطب بهذه الجلبة قلوبنا جميعاً، وقد ابتدأ التعاطف بحنان خجول، كان بالنسبة لي حناناً أبوياً في البدء. كطفل يبكي لأجل أن تصبح الدمية ابنة له، وأصبح الحنان الموجه من قلبها، أو رد الفعل، مـــا يحمل طريقة ابنة الملك الفرعوني (كارا) وهي تُقَبِّل أباها من شفتيه في ممرات معبد، تحت الهرم. مما أعطاني صفة النـــزوع، نـــزوع الحشرة للتخلص من شرنقتها، وظهر أنه شيء مساوٍ لكل الأحلام الممكنة عن عالم الرجولة، وقد جاهدتُ للبلوغ قبل الوقت كدليل على التعب من مواصـــلة الخيال. مع أن المرء ينكر بداياته عندما يبلغ، كنوع من العار، (حـــيث يذكـــر صاحب مصنع الألبان، بنوع من الهوان، عندما علق صورته، راكباً على دراجة يوزع علب اللبن لمعمل آخر). ولكن البداية تبقـــى أعظم خطوة تقريباً من بين الخطوات الفاشلة التالية، على الرغم من (...) الأولى مصاحبة للرغبة في معرفة السر، وكان، بالنسبة لي أن أطلـــب الخلاص من وضع مُتعِب لكي أسقط في وضع متعب جديد. فبادرت، ليس بدافع الحب (النظيف) كما يحلو للبعض أن يسميه، إنما بدافـــع الإعجاب بنـــزوع (م) إلى اللامبالاة، وقد حدست (خطأ – فـــيما بعد) أنها ستقدم لي النسيان اللذيذ للخيال الذي لا يتحقق، على أنـــني ابتدأت بتخيّل أيضاً، وقد طردني عنها الإلزام الاجتماعي. كان ذلك الخاضع للتفسير والقابل للتفتيت، بأنه ضرب من الحماقة الطفولية ضـــمن طقـــوس نينوى، لا يتعدى الحال ذرع الشوارع الخاصة بمكان

Twitter: @ketab_n

المعرفة للبحث عن (بقرة) – فتاة. فبقدر ما كان الإعراض عن الذكور وإنكارهم يقدم لهنّ الفرح، أو صورة الالتزام بتوصيات الأب المزيفة – من أن الناس ذئاب، وفق تجاربه السابقة عن النساء – فإنه يحرضهن على طلب السجائر وتعلم احتساء البيرة في الأقسام الداخلية، في الليل. وكنت أعرف هذا الزيف، ولكن لا أنكره، لأن حياتي انطبعت بطابع من اللطف الوقح، عندما قدمت كرسياً للآنسة (–) ودعوتها إلى الجلوس لكي أعلن عن ذكورتي بكلمة ما في أذنيها.

وهكذا تطورت العادة إلى موقف، تحملت فشل نتائجه، تحت ذرائع (...) الكاذبة (...) تعابير اللامبالاة المصطنعة من أن همي الوحيد هَم فني "لذلك فإن هذه التجاعيد.. أتدرين: سأموت في الثلاثين، أو أتعرض لأزمة قلبية". تيمناً بموت بتهوفن، أو موزارت المبكرين وفق حساب تصنيفي خاص يعطيني حجماً غريباً مع تناسي وجودات المحيط، وظروف تشكُّل الأشياء، ابتداءً بوساخة الشارع وتحطيم التلفونات العمومية، وحتى مسألة إعراض الفتيات بقصد الحفاظ على غشاء البكارة.

على أية حال، لا يمكن أن أحمّل نفسي أخطاء الآخرين، مثلما يحق لي تبرير أخطائي بدعوى التراكم الكمي لأخطاء المجتمع عند تحوّلها إلى تراكم نوعي، كفيل وحده – إن لم يكن فاعلاً مباشراً – بتمزيق الذات من خلال عملية إحصاء بسيطة، أو عند غياب المعرفة عن (إدغار آلان بو)، وحلول معرفة نهش الآخرين محلها بدافع تبرير الأخطاء الذاتية، فلا يسرنا قول القديس بأن أزمة السكن هي التي دفعته إلى العيش في حيّ للعاهرات!.

لقد أعطتني البداية انطباعاً عن الآخرين بأنهم فواكه، لا أكثر ولا أقل، وأضفتُ – فيما بعد – إنهم فواكه فاسدة، وأعرف أن الاستنتاج

Twitter: @ketab_n

شبيه بتبرير القديس. وحتى ذلك الحين لم يكن للخطأ أهمية، إذا لم تكن فيه بعض اللذة، فمن النادر أن أسلك تجاه (م) سلوك رجل عادي (...) خلال دراسة علم النفس، على أنه تكوين ضدي، شبيه بالعفو، أو الحلم، ويحمل في تفاصيله كل مشاعر الاحترام المزيف لقوانين الناس، كيما أظهر بالمظهر اللائق، وكان الأجدر - وفق مفاهيمي عن العالم - أن أدس يدي بين فخذيها كاعتراف يمثلني، عن حبي لها، وكان الأمر على عكس ما أتمناه، ووفق شروط (النظافة) الاجتماعية، التي أعربت عنها وأشادت بي كمنبع للأخلاق، إلا أنني حلمت في ليلة ماطرة بشفتيها الجميلتين، وعينيها الشبيهتين بعيني أرنب أليف، أن أكتب عشر رسائل طويلة، لأقول لها كلمة واحدة، ربما لن تفهمها مباشرة (أُحبكِ)، وأنتقي أكثر الرسائل غموضاً للتعبير عن الصراحة كدليل عن وضع القلق واضطرابات النوم. وكان خطر المواجهة يكمن في الرد، ولذلك اخترت وقت ذهابها إلى البيت لكي أسبقها تحت شجرة في طرف الحديقة، متذرعاً بشم رائحة الآس وتفتيت أوراقه الزائدة.

بعد أيام، عندما عاد بي الحنين إلى تكرار مشهد البداية هذا: رسمتُ في ورقة بيضاء، نسختين: رجل مهذب يسلم امرأة ورقة مطوية، وهي تفزع ثم تدسها في جيب سترتها وتقول: "إذا كانت من الطالب الأردني فلن آخذها (...) كان على (...) يقدر تلك مسؤولية (...)، ويقدر زوال الرقيب في بلد غير بلده..".

كان انتظار النتائج بموازاة تخيل الرد، قائلاً، الخوف من الغد، الرغبة في أن يأتي قبل الوقت المطلوب، أو ما يسمى بالزمن النفسي، أو الرغبة في أن لا يأتي أبداً، من خلال افتراض كارثة تؤدي إلى موتي، أو تؤدي إلى امتناعها عن المجيء، بحكم توقع السيئ من النتائج، مع ذلك، فإن كان الأمر متعلقاً بعشرة أعوام، فإنها لابد آتية، ولابد أن تقترب

Twitter: @ketab_n

كلحظـــة في حالـــة تدوينها على الورق، مع أنه لا يمكن قياس مقدار العـــذاب، عذاب انتظار الغد، بدافع الرغبة في نسيانه، أو بدافع التقليل من أهمية العذاب عند حصول المطلوب، إذا لم نعتبر ذلك العذاب طيباً ولذيـــذاً، كحـــد أدنى مـــن الجهد للحصول على شيء، مقارنة بعدم الحصول عليه - وبشكل بارد - بدون جهد.

وكـــان الأمر كذلك في المرحلة الأولى، عندما دخلتُ في الساعة الثامنة بالضبط، كوقت محتمل لدخول المُدَرس، ولكي أجنب نفسي أية مواجهة مباشرة، حتى آلف الجو، مثلما ندخل الظلام ثم نألفه بعد دقيقة بحيث يمكن رؤية أشباح الأشياء التي كانت سوداء كالظلام نفسه.

ولـــسوء، أو لحسن الحظ، أن المُدرس، بحدس منطبق على حدسي كمـــا أراه، (...) دقـــيقة (...) لأنـــه (...) كلمة (...) إلى (...) النهوض، ولأنه لا يمكن أن يتكلم عن كلب (بافلوف) وكيف نقدم له الطعـــام بمـــصاحبة صوت الجرس، دون أن يسيل لعاب الأستاذ نفسه، وليس لعاب الكلب، يجب أن يتناول الفطور الكافي إذن).

كانـــت (م) منكسة الرأس في المنضدة الأولى، ولم أستطع أن أنظر إليها مباشرة لكي أعلم إن كانت تنظر إليّ، أو تحسب حساباً لوجـــودي لأجـــل الـــرد، وليس ذلك مهماً مقابل جديتها في نقل المحاضـــرات الناقـــصة قبل دخول المدرس. نظرت، عندما نفذ ضوء الـــصباح وامتد على سطوح مناضد الخشب، إلى كتفيها النازلين، وهـــي تمـــيل رأسها باتجاه القلم في محاولة لتحسين خطها الرديء. وكانـــت تحيي المتأخرين مثلما حيّتهم بالأمس، ما لم أتبين وجهها، وكـــأن الأمر انقضى، أو أنها لم تقرأ رسالتي، كما ادعت فيما بعد، وتحـــت وطأة الإحساس بضياع جهودي وقلقي، وسخافة توقعاتي، حـــيث أعطـــيتُ الحالة أهمية القتل، أو انتظار ساعة المعركة، ذلك

Twitter: @ketab_n

الـــزمن الطـــويل جـــداً في الحسابات النفسية لحين دخول الأستاذ والانشغال بكلب (بافلوف).

فكـــرت: كيف أبدو عاقلاً بسبب الذنب الذي ارتكبته، عندما انتفض شعرها لكي يظهر وجهها أمامي مباشرة، قرب وجهي، ولكي تقـــول، وهـــي تبدو أكثر عدوانية مني، لحظة دخول الأستاذ: "أراكَ مُؤدباً اليوم!". وأجبتها دون أن أحس بمكرها مباشرة، ولكني تبينته عند فحـــصي لـــتلك اللحظة بعد ست سنوات: "أشعر بالذنب". قالت: "أبـــداً.. لا داعي لذلك". وهكذا مرت المحاضرة عن (بافلوف) بعيدة عـــني. سمعتُ لغط المدرس، واعتقدت بأني أبصرتُ إشاراته التي استعان بها لتقريب الفكرة.

وكانـــت (م) تواصـــل الانتباه إليه، كأنها نسيت وجودي خلفها مباشـــرة، ولكي أعرف بعد ست سنوات من محاولات الاستنتاج بأنها كانت تحس بـــي كما تحس بنقش غريب على ظهر قميصها إذ ترتديه لأول مرة.

ومع أن حوارها القصير معي، كان شبيهاً بالإشفاق الذي يعطيها مظهـــر الـــتعقل، فـــإن هذا الحوار أعطاني قلقاً كافياً، بقدر ما منحني اطمئناناً كافياً. كما يقولون على فراغ الكلام بـــ (كافياً) أو غيرها من مرادفات القول، مثل كلمة (بالعكس)، أو (الحقيقة..).

ولكنها أنكرت قراءتها لكلماتي، وقد رضيَت في الوقت نفسه أن أنفـــرد بهـــا في الممـــر بخجل أصبح سمة ملاصقة لي معها، وأنتقل في الحوارات مع أصدقائي حول مصادر الشعر عند (السياب).

وقد ابتدأت معها بالحديث عن ميزاتي الخاصة؛ (الرسم والكتابة) وكـــان ذلـــك كافياً لتخريب المشروع. انطلاقاً من تصوري عن ثقافة نساء المدينة، وفق الاستنتاج الذي أوصلهن إلى مقاعد الجامعة، على أن

Twitter: @ketab_n

الزمن ومن خلال تبدّل التقاويم والدوران المستمر لعقرب الساعة، أثبت لي بطـــلان كل الاحتمالات حينما كنت متأثراً، أو قرفاً من صباحات القرية، وحين كانت أصوات الحيوانات تمثل لي محض ضوضاء رتيبة.. إن النساء متشابهات في كل مكان، وإن الأمر يعتمد على مقدار تدريب الحـــواس فقط. وتعزّز هذا الفرض بمعرفة (أ)[1] تلك المرأة النادرة حقاً، والتي تستحق أن أحبها وأن أنكرها فيما بعد.

كانـــت المجازفة، الإحراج، معزّزة بعتمة الممر، وهي موجودة إلى جـــواري. أكـــاد ألمسها، كملكة من ملكات الجن. بقدر الضعف أو الانكـــسار من أن شيئاً ما يموت عند حضور الآخرين، استطعتُ قراءة الـــشحوب في وجهها، وألغيت بنظرة واحدة تَرف الإعداديات لكي أضعها في التجربة وأصب عليها حامض العاطفة، وأدعوها إلى النهوض بمـــستواي منذ اللحظة الأولى، إذ تحوّل حب الخلاص من السقوط إلى حُب.

عرفتُ وقتذاك أهمية صياح ديكة القرية وتأملات منتصف الليل في صـــوت الحمـــير، أهمـــية شـــجرة الغَرَب، حصى النهر البليل بزيت الـــرخويات. وكان لابد من تبادل الريب مع الجمهور لفرو الصداقات المؤقتة والدائمية، بعيداً عن مواقف الثقافة، أو قريباً منها.

وظهـــر (ث) بعد ذلك كرجل مواقف ضروري في البدء، ثم إلى ضرورة مجردة من أهمية الموقف فيما بعد، مع أنه كان يمثل وجهيّ الحالة في آن واحـــد. قـــد جمعني به رصيد التجارب الحدسية، والحالة شبيهة بتمييـــز روائح الأشياء، من أن رائحة (ث) كانت خاصة، متوازية مع خـــبرات الخيبة، أو الحرمان، و لم نكن بحاجة إلى الحديث عن حياة كل

---

(1) أ: (نعـــتقد) أنه الحرف الأول من اسم (آية) زميلة له في الجامعة ربطته بها علاقة حب لمرحلة قصيرة لاحقة.

Twitter: @ketab_n

منا، إذ كان ذلك ينكشف تحت مطواعية تحمل النقد ورفض صدقات الإشفاق والإحساس الشبيه بالمرض لدى كل منا.

لقد دخل في محاسبة شديدة شبيهة بالتحقيق لانتزاع الاعتراف حول حب (م)، واعترفت له تحت وطأة الحذر الممتد من هفوات الآخرين، واعترف هو بمعاناته تجاهي، أو تجاه نفسه، بما يعطي الصداقة ضرورة إذلال الذات لأجل كسب الآخر. وأياً كانت الطرق، فإن (ث) دخل إليّ زائراً عادياً وخرج وفيّاً، في صورة إعلان أمام الآخرين، وبما يميز مواقفهم، بأن أحدنا بحاجة إلى نصر الآخر مثلما هو بحاجة إلى هزيمته.

ولكن تلك العلاقة، التي خمن الآخرون، بأنها ستنتهي بالإشباع، أو بفاجعة عدم التفاهم، قد دامت بفعل الكشف المستمر للخفايا. لقد تكون لديّ مفهوم دقيق حول نجاح أية علاقة بين شخصين، بأنها تعتمد على الكشف المستمر، الذي لانهاية له، لشخصية كل فرد من قبل الآخر، مما يعطي انطباعاً على شكل يقين، بأن نوعية هذين الشخصين تعتمد؛ إما على عمق كل منهما بحيث لا يمكن أن يعطي ما لديه وينتهي - وكان هذا حالي مع (ث) -، أو أنها تعتمد على سطحية الاثنين معاً، بحيث لا يحتاج أحدهما إلى كشف الآخر، بل يكتفي بقراءته من السطح، ولما كان السطح يتغير بعوامل الطبيعة شأن تغيّر وجه الأرض في اختلاف الفصول، فإن ذلك كافياً لاستمرار العلاقة حتى لحظة الكف عن مشاهدة الآخر.

إن التعاطف ينشأ من معرفة الشخص بأنه يتنازل أمام الآخر، فما أن يدخل فيه حتى يترك ذاته، ومعرفة الحال نفسه لدى الآخر، ولذلك لا يحسب هذا تنازلاً، لأن الشخصين إما يصعدان السلّم معاً أو يهبطان معاً، وهذه الـ (معاً) هي السر في أن يستمر الاثنان "في التحديق إلى

Twitter: @ketab_n

نقطـــة واحـــدة، وليس إلى تبادل النظر"، وهذا هو الحُب كما يُعرّفه (انطوان ده سانت).

لا أحـــتاج إلى جهد كبير لقراءة الصديق (ث) كما أحتاج هذا الجهـــد لقـــراءة (م) نفسها، وقد أدّعي أن قراءتي لـــ (م) إنما تتم من خـــلال (ث)، وهذا ما كشفَته الأحداث التالية، نظراً لأنه أَحَب (م) وأعطى هذا الحُبّ لي أنا.

كـــان ذلـــك في الممـــر نفسه، ربما دفعنا حُب التغيير إلى اختيار مـــسطبة خـــشبية لكي نعلن عن حماقاتنا ونعتز بتاريخنا، عندما يسقط الحُـــب دائماً أمام تاريخ الشخص: التفحص على عجل، مثل كينونات فاســـدة، النقاش حول إمكانية حياة الموتى، غير أن السر الذي تعلمته لكـــي أمارس الصبر وأن أُسمّيه، تعلمته من الثيران التي كرستها للرسم ومـــن مراقبة مواسم الحصاد، عندما سميت الحُب تجاهها - تجاه (م) - بأنـــه حُـــب موسميّ شبيه ببذار القمح: تعب البداية - النوم قبيل زمن الحصاد - تعب النهاية. ثم فساد الغلال.

كانت السنابل سوداء، في كل موسم كانت سوداء، ولم يمنعني ذلك من أن أبذُر في الموسم القادم. ولكي لا أحس بالعبث، قلت - علـــى أي حال - بأنني تعلمتُ فنون الزرع والحصاد وإن لم أجنِ شيئاً.

الفقـــر، كـــان خاتمة للسواد السنوي المتكرر، الجوع حتى حافة الهلاك، ويظل الرجل يستحق الإعجاب مني (أنا)، يظل يبذر مع علمه الأكـــيد بنتـــيجة الغـــلال، ولذا، لكي لا أُهزَم، لكي لا أموت، فإني اســـتبدلت مـــصادر الغذاء بغلال غير القمح، عندما حَقَّرَني فيلسوفي المفضل (نيتشه) بأن "كُل شيء يؤدي إلى هدف التكاثر".. حتى الحُب العذري، حتى أنا و(م).

Twitter: @ketab_n

بـــدأ كل شيء بالهبوط بعد تجربة الممر، أو ما سميته، آنذاك، بـــ (الحواجز). وكانت حواجزها ضرورية وغير نافعة كآثار مهدَّمَة تذكرنا بمجد أجدادنا.

وازدادت تلـــك الحواجـــز سُمكاً من خلال إشاراتي إليها كلما التقـــيت بـــــ (م). لذا لا أذكر بالضبط بأنها قالت لي: "إنني مرتبطة بشخص قريب، علاقة شبه رسمية..". أو إلزامية، كما فهمتها، على أن ذلك الشخص كان دنيئاً بالمقياس إليّ.

(...) أذكر عن (...) الحب الأول سوى (...) المعتمة..

كانت صباحات نينوى تمنحني بدائل الخسارة، وقد اعتدت على الـــنهوض المبكر، لأرى الطيور من شرفة القِسم، وهي تمزق بأصواتها سمـــاء الفجر الفضيّة، وتلهو لكي تربط الغيوم بخط أسود متقطع، على اعتبار أن فتح النافذة، بمجرد فتحها، كان يُقرّب السماء إليّ ويُدخِل فجر المدينة إلى غرفتي، معززاً بمنحة التل على إعطاء ذكرى معابد الزقورات وصلوات الكاهن الأول.

منشفتي، وملابس النوم، ويداي مفتوحتان للإمساك بشيء، ولكن الـــبرد يخترق الزجاج ليدخل تحت بطانيات الزملاء ويعقفهم في حركة مخجلـــة، لكـــي يدفئون أكفهم بخِصاهم. تكلم أحدهم مدفوعاً بهوس الـــنظافة في البـــيت أو الشتائم: لا بديل عن راحة البيت، حيث تفتح عينيك في الصباح لتجد بخار الشاي.

ولكـــني مازلت ذراعاً من أذرع القرية الطويلة في نقل عاداتها إلى أبـــنائها حيثما ذهبوا، فهم مزعجون بتجاوزهم لنظام الفطور المقدس رغـــم عدم وجود الديك، الذي، على أمل أن يذكرهم بنظام الفوضى الـــرائع والرتيب معاً، مما يضطرني إلى مقارنة لون الضوء هنا بلون ضوء القرية الصباحي، فأجد فارقاً شاسعاً، رغم أن ارتفاع التل وإشرافه على

Twitter: @ketab_n

سطوح الأبنية، أعطاني بعض الرجاء المقنع من أن المدينة منخفضة بمستوى أكواخ القرية. وكانت نينوى كذلك، من حيث كل شيء، باستثناء ندرة الحمير أو غضب الأمهات عند النهر قبل تأدية صلاة الفجر.

كنت أدمر رغبتي يومياً في سماع (شوبان) - يعلّق ضربات البيانو في كل فراغ - صباحاً، يختلقون الشجار - أصحاب الغرفة الواحدة - ولازال هناك وقت بحدود الساعة والنصف لكي يبدأ الدوام، وإنه ليتعذر عليهم أن ينهضوا على صوت (قرقعة)، كما يسمون الموسيقى الكلاسيكية، "وقد سهرنا حتى الثانية بعد منتصف الليل، نقرأ لكي ننجح في الدروس. ولم يتح لنا الوقت بأن ننام في النهار، والدوام مزعج. ولدينا (كوزّ) اليوم. وأنتَ..". فيعودون إلى تدفئة أكفهم بخصاهم.

وحسب معلوماتي؛ إنهم كانوا يعدون الشاي طوال الليل، ويشذبون شواربهم، ويكوون قمصانهم، ليبدو كل فرد أمام المرآة، على أمل، أن تقول له (صباح الخير) غداً - أنيقاً، بحيث تساعده (...) تكسرات المكواة على القميص، أو العطر الذي اشتراه بكامل المخصصات، لأن يملك الشجاعة الكافية ليقول لها (صباح النور).

أما أنا فكنت لا أهتم كثيراً بتلك الطقوس، ولا أعطي أهمية لترتيب شعري، أو أنسى ترتيبه نهائياً - على اعتبار أن تلك السمة من سمات الفنانين، وهي ضرورة لكي أتميز عن الآخرين بالقدر الكافي من الرعونة، والوسامة الطبيعية (...) إحساس خاص بالجمال الحقيقي الذي يلغي الهندسة البشرية، كشيء شبيه بالآلات أو الدمى - أو أن (م) لن تجهد نفسها في التعرف عليّ كل صباح، وتستطيع تمييز شعري، عند تجمع الرؤوس في الممر، عن بعد.

Twitter: @ketab_n

وأعطـــاني هذا الإهمال في المظهر، حق الغزل وطرح تحية الصباح على الفرّاشة وعاملة المكتبة، والطالبات اللاتي لا أعرفهن، مثلما أعطاني تبريراً بسماع (شوبان) كل مساء قبل عودة الطلبة، والنظر إلى مديات نيـــنوى، كـــيف أن الأنغام تخرج من النافذة لتدق، كالمطارق، أسس البـــيوت الدانـــية مـــن النهر، وتُرقّص منارة (الحدباء) لتجعل إمكانية سقوطها قريبة جداً.

كانت الضربة الواحدة تؤلمني، أو تكنس أوساخ النهار، على حد تعـــبيري آنـــذاك، وتهزني كورقة عشب لتدني الطيران إليّ وتقربني من مـــرتفعات الانـــتحار بالـــسقوط، وتعطيني الشجاعة الكافية لتجديد عواطفي من باب اللغة السرية، التي لا تهز - كما كنت أعتقد العكس - أي امرئ اعتاد على الشجار في الشرق. مع أني سألمس الانفصال في الـــروح، كانتفاض لذيذ مدمر شبيه بالمضاجعة لامرأة خارقة الجمال، وكل تلك التي أصبحت بدائل عن العفة المصطنعة، وما تعلمته (م) من الأفلام العربية، حول ضرورة وجود الحدث المؤلم الذي يؤدي إلى زواج الأبطال في النهاية.

ووجـــدت بدائل واقعية في أصدقاء يكرهون الاعتناء بمظاهرهم، وينـــسون في اليوم ما إذا كان مفرق الشعر على اليمين أو على اليسار بـــالأمس. وكنت أنتخب ثروة اليوم من أهمية الأحداث التي أعتبر أنني لـــن أنـــدم لـــو عشتها بتفاصيلها، من جراء جنون، أو هوس (س)[1] بالـــشعر، و(س الكئيب) بلغة التنظير، و(ن) بامرأة وضع حبها بمستوى إبـــداع (هنري روسو)، ولوث الحالة في الليل - حين نجتمع أحياناً - بنظريات (فرويد) حول الجنس.

---

(1) س: الحرف الأول من اسم (سعيد الغانمي) صديقه في الجامعة.

Twitter: @ketab_n

أعتـــرف أن حالـــة كل واحد تستحق قهر الذات لأجل وضعها موضـــع التفـــسير، وأنهـــم كانوا أحبابـــي الوحيدون، وقد استمروا كذلك.

وظلـــت تقـــربني من دفقات النهاية، اقتراب السكين من العنق، بانـــتهاء الشتاء الأول، شتاء الاعتراف لها، حين اتسع الندم في الصيف علـــى شـــواطئ الحـــصى القروي، إذ لم أعد أذكر من شتاء (م) غير الضباب القريب، وقد ألفته حتى دخل في الجوف ليتكاثف ويمطر على الـــضفاف في الـــصيف علـــيّ لحظة السقوط على الرمل مثل قصائد (لوركا): "هناك على الرمل حفَرَت ضفيرتها الشقراء حفرة.. إلخ"، مع الخجل من ذكر بداية القصيدة: "لمستُ نهديها النائمين فاشرأبا لي فجأة كأشواك سنبلة". ولم أسمع، أسوة بنواح الفاختة عند ثقوب السيول في الأجراف سوى "حفيف تنورتها الموشاة، تمزقها عشرة سكاكين..".

أوْم الغَـــرَب العاري، وقد نفض صوفه على فراخ الطيور الحديثة. حـــصى. حـــصى لا نهاية له، يحرض على ولادة قصائد ميتة، لو كنتُ أجـــيد الشعر، لو كنتُ أجرؤ على إغماض جفنيّ لأسمع دويّ الكون، عند انقضاء كل نهار، وأسلم ساقيّ للتيار النهري وأقول بصبغة التساؤل الـــذي يعطيني وحدة الألم الخاص بـــي: "هلّ جرّب شخص لذة مياه النهـــر في الغـــروب مـــع الخوف عند حلول الظلام!.. لا أحد سوى كلكـــامش، ذاك الذي ابتنى بيته من القصب ليقطّع الماء بعشرة آلاف رمـــح. ابن تلك السيدة من أوروك، كان يحلم أن تجيئه (ميمهُ) طافية فـــوق سلة طفل حديث الولادة". وسمعتُ زئير الأسود، رأيت الغابات المضاءة بعيون النمور الفسفورية، أسود ونمور أوروك.

لقـــد ســـقطتُ على الرمل أثبّت ملامح (م) لكي يمحوها الهواء والموجة، وأعلم أنني سأسمح بذلك.

Twitter: @ketab_n

صـــيفٌ أعطيه اسماً من أسماء الامتحان، وأعلم أنها لي، تسمح لي بالانـــسحاب، وأعلم أن الشتاء سيأتي وسيكون أكثر ضباباً، أكثر خفّة في القفز.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

فصل النظر إلى (م) من خلال شرفة الضوء المؤلم وهي تحيك لي جَورباً من الصوف وتصطادني.

ابـــتدأ فـــصل الشك بجدية الوقائع السابقة، ولكنها لم تنته بعد، والآن توجهتُ إلى مملكة اللون والضوء المحرق لكي أقتل (م) عن طريق (م) وأحبها مرة ثانية، بينما تقوم بقتلي حتى الآن.

كـــان (س الكئيب) يمزق لوحة في الجدار، فهمت فيما بعد، وقد كـــنت أضـــحك ضده حدّ العدوان، علمتُ أنه، لكي يهشم الوجود المـــزيّف، لا مـــن خلال تناوله المستمر لحبوب الكآبة، بل من خلال التنظير المستمر، حتى درجة تحوّل الأشياء إلى ذرات تافهة.

لم تكن لوحة بالمعنى المألوف، وإنما ضجيج ألوان، ليست لي، ومع ذلك فقد كان الشرح والاهتمام بها يؤلمني..

غداً سأحكي كل شيء، لأنني أريد أن أنام.

صـــرتُ، بعـــد أيام الانكسار تلك، وحيداً وحدة ذئب، وضائعاً لأهـــتدي بقطرات اللون ورائحة الأصباغ إلى وضع خاص، انبثق من أمـــانٍ ســـابقة، واحـــتمالات غضب تحوّلت إلى هواية باردة، وكان الانكـــسار الأخـــير يدفعني لمواجهة اللوحة، العذاب اللذيذ بها ونسيان

Twitter: @ketab_n

تعب السيقان بعد الوقوف ساعات طويلة، إذ نادراً ما أصل إلى الإغماء، مدفوعاً برهان مع نفسي، ولأغطي هزيمتي بكبرياء الرسم والقراءة الدائمة ومعاشرة الشاذين الذين أصبحوا بمرور الوقت أصدقاء رائعين لي. كنتُ أعدّ في الوقت نفسه مكاني، مثل دجاجة تستعد للبيض، بين آلاف الكتب، و لم أفكر بالرضا إذا ما أصبحتُ مجرد مُسطِّر حروف.

بعد الحدس: أن (م) لم تعد قادرة على عذابي بها، كتبرير لأجد امرأة ملائمة مع الاعتراف بوجود الرفض الداخلي تجاه كل جنس مغاير لجنسي.

جاءت الفتيات إلى المرسم لكي يجلسن تحت كشاف الضوء لأرسمهن. كنتُ عنيداً ومكابراً في الإصرار على رسم وجه معيّن، مثلما كنتُ محطماً تحت وطأة (شوبان)، وكان يبدو لي الوقت ضيقاً بحيث لا فائدة منه دون الإحراق.

أنصتُّ إلى قطرات المطر من خلال الزجاج، وهو يمزق هواء نيسنوى، تتمايل الشجيرات النظيفة لتوسع مساحة الغبطة بيني وبين الأشياء، إلى درجة خسارة التميز بين أي شيء: حوض دبق تلك الحياة، وهي تبدّل جلدها مرات في النهار من ضباب الصباح إلى مطر بعد الظهر.

عندما جلسَت (أ) تحت كشاف الضوء، تبدل الإحساس الأول حين مدت لي ذراعها لتعرفني بها، وكنتُ أحوّل وجهي عن ابتسامتها الخائنة، ابتسامة حيوان محتضر، إلى جدران الكهف الهندي، حيث كان الفنان (ض) يكتب بحثاً تراثياً عن المدرسة الموصليّة في الرسم، وبيننا باب غرفته الملاصق، حتى ليبدو أنه لا يبالي بنا (...) بكل الفتيات اللاتي غازلهن بطريقة أبوية نظراً لاتساع صلعته العزيزة مما يدل أنه تجاوز الستين.

Twitter: @ketab_n

رأيت اللوحات المألوفة، لأبدّل نية الهرب من كلام (أ) الفارغ إلى مصافحة (أ) أخرى وتثيرني بانتصاب نهديها المعاديين، وخصرها الدقيق الذي يقلل من أثر حدة وجهها الشبيه بوجه ثعلب ماكر، ثم أني انتبهت إلى ارتفاع ردفها بدرجة تدعو إلى اختراق المألوف الاجتماعي واحتضانها من الخلف كيما أحس بحنان اللحم وأهميته، أو لذة الخَطّ المُنَصّف للردفين، كيف يكسر التنورة وينساب إلى الجورب الشبكي، ويؤشر نحو الحذاء الرياضي المنخفض.

شيء ما يُذكّر بالسرير، بعري الأقدام، عندما تصبح البساطة المصطنعة نوعاً من الفتنة، ولكنها تقتحم، وهي تطيل نطق الحروف وتعذبني بالتشديد على (السين).. كأني أحس بانتظام أسنانها، بروعة اللسان الممكنة خلف الانتظام الطبيعي، إلا أن ذلك كفيل بالنسيان عند حضور امرأة ما، لولا الخيط الغليظ الأبيض واليومي الذي شدت به شَعرها، بحيث بدت مثل قصيدة ساذجة أبدية تنحدر من قمة الرأس لكي تسيل مع خصلة الشعر، عبر الخصر، وإلى انكسار التنورة بحفرة الردفين مما يعطيها صفات فَرَس تطلب الامتطاء. وأشرَت بإشارة لا تخفى أن ابتدأ برسمها، لكي أصل ذات يوم إلى سر بياض الردف تحت كشاف الضوء. وكل ذلك يبتدأ من استخراج التعابير من وجهها المدبب الرائع، على أمل أن يحق لي رسمها في أوضاع أتمناها. غير أن (أ) التي بدت قبيحة وهي تجلس على الكرسي الخاص بفن البورتريت، وتقول (هيا ارسمني)، وأجبتها على اعتبارها صديقة لتلك المعجزة، بما كنت في حاجة إلى البساطة،..

أجلتُ رسم التي أدهشتني لكي أرسم (أ)، بلا علم مني، إذ نادراً ما يبطل حدسي، أن تصبح هائمة بي، وتعترف، على خلاف المألوف؛ أنها تحبني وتبكي بدموع غزيرة كانت كافية لغسل حصاة القسوة التي زرعتها (م) تجاه بنات جنسها في نفسي.

Twitter: @ketab_n

بعـــد تجربة ساعتين من إمكانية رسم الخط الخارجي، الذي يتغير وفـــق طبـــيعة الخجل، أو إنـــزال الرأس، أو وضع اليد على الفم أثناء الـــضحك، يحّمر وجهها تحت الضوء، وسيستمر بالاحمرار حتى وضع اللفـــة، أو الملل من الجلوس. وكانت تلك المثيرة ذات الردفين الرائعين تـــشيع صـــاحبتها بالـــنكات البذيئة، وكنت أضحك كيف أنها تمط الكلمـــات وتُكثر من لفظة "ايه.. ايه..."، وقد اضطرها الوقت للإذن بالانصراف، وأنا أثبت نظري في مؤخرتها وهي تمضي في الممر، وتودع (ض) بحـــركة أنثوية، حتى بدت في عتمة الممر مثل لوحة من لوحات عـــصر النهـــضة. وبقـــيت (أ) التي أصبحت عشيقتي فيما بعد، والتي انتقمتُ من خلالها، عن كل الخسارات الممكنة مع الإناث.

بـــدوت مُتعَباً، عندما تغلبت هي على خجلها. حين خرجنا معاً، اختـــرت مسطبة للجلوس. وقد حكت لي (أ) عن النكات التي تعرفها ثم صـــمَتت. وحكيت لها عن (وليم فوكنر) فلم تعرفه، مثلما لم تعرف أي مصدر للعزاء ذاك الذي يأتيني منه، قلت: "لقد حكيتِ كل النكات الـــتي تحفظيـــنها، ماذا بعد ذلك؟". قالت: "لا تحدثني عن شيء ثقيل، فوكنر وسواه، حدثني لكي أضحك".

وامـــتد بـــصري عـــبر شـــارع الطلبة لكي أحصي عدد النساء الجميلات، أشباه (أ) في الغباء.

"غداً سأكمل البورتريت، يجب أن أذهب..".

* * *

هذه خاتمة المشروع..

إن الذكريات لشيء قاتل، أن أعيش تلك الأحداث مرة أخرى، أعيش ألمها، وأفسره لكي أكتشف إن كان ثمة لحظة اعتبرتها سعيدة في

Twitter: @ketab_n

حينها، ثم أُفسرها تحت غلواء التذكر لأكتشف أنها لم تكن لحظة غبطة، بل نوعاً من الألم المُر.

لا طائل أبداً من استمرار محاكمة الذات، مادامت النتيجة واحدة: الإحساس بالخراب والعدم.

ومادامت تلك الذكريات - وقد حفرت فيّ - لن تذهب عني. لَمَ أحـــرص عليها، وقد صنعت التدمير الكامل في كياني. لا جدوى. لا جدوى.

هـــناك ذرائـــع أخرى: الكتابة خارج الذات لكي أجعل الوجود ممكناً. أعتبر أن هذا الأمر صحوة حرّة.

فكان الهدف من هذه.. المذكرات، هو الوصول إلى نتيجة معينة، وقد وصلت في البداية.

أرجو أن أكون قد أصبحتُ عبداً للكلمة حد الصلاة. الآن: هيا يـــا صديقي يا (أنا) إلى العمل، إلى الأوراق البيضاء الرهيبة، كيلا تظل بيضاء بعد الآن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

ظل القمر على الأرض

إلى هُدى:..

اعتراف بقوّة العشرة.

فُتح بتاريخ 14 شباط 1987م

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- I -

قُــدر لي أن أعمل في أحد الجيوب الطبيعية، قرية محاطة بالدغلِ والوحــوش، حــيث تحس عندما تسمع عواء الذئاب وقرقطة الخنازير وشــكوى بنات آوى، أن العالم لازال بخير.. تماماً مثلما تفرغ نفسك مــن الأفكار وتستلقي وتعرف أن الشمس ستطلع في الصباح، وأنك ستراها كيف تطلع.

جاءت تلك المُعجزة فدخل الجمال كله إلى الغرفة.

ذهبت تلك المُعجزة فخلَّفت سحابة من العطر.

وبــين المجيء والذهاب ثمة سنوات لا تُحسَب بقياس التقويم ولا الــساعة، ســنوات مــن الشفاء والتخلي والحرية. إنها رعشة جسدية وضَعَت العاطفة في أكواب.

وهكــذا فقــد قُدر لي أن أكون طفلاً واعياً، إنها ظاهرة طبيعية تُضاف إلى سجل البراكين والكوارث، تشهدها الأرض لأول مرة منذ أن كانت كتلة من الرماد وحتى تنتهي إلى كتلة من الرماد فيما بعد.

قلــت، إنها عندما ذهبَت، بعد أن تناولنا قُبلَة سحَبَت نَفَس التاريخ، تــركَت سحابة من العطر في أرجاء الغرفة، في المشط والمرآة، فهي تتأكد، بين لحظة وأخرى، من أنها أكثر أو أقل جمالاً من اللحظة الفائتة.

العطــر في ملابــسي، في السرير، في حديد المنضدة، وفي أعقاب الــسجائر الــتي عاقــبتُ نفسي بها لأنني أكتشف فكرة التعلُّق وهوله وعظمــته، فاختلَطَ العطرُ بالدخان ولم يمتزجا. يذهب الدخان ويبقى العطر الذي لم يكن صناعياً بكل تأكيد.

Twitter: @ketab_n

لم تكن قد تركَت الغرفة أبداً – عفواً، لقد توهمتُ – بل ذابت في ملابسي وسريري وحديد المنضدة وأعقاب السجائر التي عاقبتُ نفسي بها لأنني اكتشفتُ فكرة التعلُّق وفكرة الانـــزلاق عن الموت ونسيانه.

* * *

أكـــاد أسمـــح لنفسي أن تعوم في هذا الهواء السلس والمتوتر، أن تكـــون مـــشروعاً لحلم امرأة، وأقول: إنني ربما كنتُ محتاجاً جداً بأن أُســـتخدَم هكذا بلا أية عوائق، وبلا شفقة على نفسي، وأن أغطس في الانهـــيار مـــنقاداً ومستسلماً بكيفية تنتمي إلى الهيولى، إلى اللامحدود. انتـــزاع كل ثألول تاريخي، كل ذكرى معانِدة، ذلك أن العطر الأنثوي كان يدور حول الجسد من الخارج ولا يلمسه.

ولأول مرة أفهم معنى أن تكون كلمة (رِقة) حيّة وفاعلة إلى هذا الحـــد. وأن العطر نفسه يخدش، ولكنه قد تجاوز المفهوم العادي لحجم الـــزجاجة والسائل الملوّن فيها (أقصد العطر المصنوع) لقد تعدى ذلك إلى الـــشم بواسطة الحس. بلل في الشَعر تحت المنشفة، والمنشفة كيان أنـــثوي قـــائم بذاته، طُوِيَت بطريقة تدل على الاهتمام الكبير بمفهوم الجـــسد، ولكنها طريقة أثيرية غير محكمة، لأن المنشفة كانت قابلة لأن تصبح مستقلة هناك على السرير المُزَيَّن بفروة خروف أسود.

كل قطعة من إكسسوار هذه المرأة كيان أنثوي يطمح بأن يستقل عـــنها، ولـــذلك فهي، مع مجموع أشيائها، تنوي أن تصبح عشيرة من النساء. فلو أني تابعتُ هذا الوصف مستسلماً لكل تفاصيله لحدث تغيّر جيولوجـــي بطيء في داخلي، وربما حدث انكسار ما هنا، صخوري الداخلية، ستصبح أكثر ملائمة لبناء تمثال. أن أؤسس لها، واضعاً القطع الأولى لحلم كبير بلا حافات حادّة.

Twitter: @ketab_n

ثمة بعض الحديث دار بيننا. توصلتُ أنها تريد التهامي تعرّفاً، وأن صـــوت ألفاظهـــا قد تحوّل إلى أوامر تطلب مني الخضوع، غير أنه من الطبيعي أن ألعب لعبة المقاومة، مخافة أن أبدو رقيقاً مشابهاً لها، مخافة أن يـــرتفع صـــوت التكسر من داخلي، التحوّل الحبيب بشكل أدق، أن تصبح اللغة أكثر جدوى، أن نصير متورطين في البوح، أن نمتلك بعضنا مبكـــراً، أن لا نعطي اعتباراً لأنانياتنا، أن نمنح كل شيء منذ اللحظة الأولى، ذلك أنني قررتُ أن لا أُقعر الحلم فيكون إناءً لحاجاتنا المظلمة. والحـــس هـــو السيد، وتفسير الحس. وكلها محاولات أولى للخروج بالتجربة من التاريخ إلى اللاعملي، أن ننهض سوية بلا طعنات متبادلة ولا جروح قديمة. أن نحضر تجاربنا الفاشلة.

لو عدتُ إلى الجسد: لم يكن مطلباً للمتعة، لقد كان بهيئته الممتلئة يتفـــتح نحو الخارج، يرفض أن يستعمل لجنون عابر.. لقد أبصرتُ فيه بعض آثار محطمة ككلمة (زمن أقوى مني) وكلمة (نصيب) وكلمات أخرى أكثر حطاماً.

وشـــهدتُ لعبة ما لتخطيط معيّن.. شهدتُ خطوة سرية نحوي.. وهكذا سأنفتح كلياً نحو هذه الخطوة.

- (1) -

سمعتهم يَعظُونها لأنها كانت جميلة وصعبة المنال. قالوا: إنها تركَب السيارات وتسافر بكثرة.

قالوا: إن لها عشاق كثيرون لأنها خفيفة. ولكنها جميلة وصغيرة، تُغـــري، توقظ غريزة الذكور. إنها لا تبالي بأحد، بيد أننا نسعى جميعاً إلى ملاطفتها ومغازلتها، ونتسابق لتقديم خدمة لها مقابل خدمة منها.

Twitter: @ketab_n

تلتجئ إلى غرفتها البسيطة وتبكي. تحاول كتابة بعض الكلمات، لأجـــل التفـــريغ، تتألم ولكنها تبتسم للجميع، تحيي الذين يجرحونها. وكانـــت تنام بسرعة ذاهبة إلى الكوابيس، فلا بديل لألمها سوى النوم القلِق والسفر.

قالـــوا: إن لها اسماً غليظاً، فتخيلتُها ممتلئة الجسد، مُحَجَّبَة، غبية.. وتخيلتُ أنها لابد أن تكون مليئة بالأمراض.

سمعتُ عنها الكثير مما لا يتمنى رجل مهذَّب أن يسمعه عن امرأة، ولذلك أحببتُ أن أراها عندما وضعتُ أول قدم في أرض الدغل.

أردتُ رؤيـــتها لأعرف وأتعرف بإحدى الجنيات العجيبة. إن في داخلـــي فكـــرة بديهة حول ما يقال، الفكرة: هي الشك ثم التأكد، ولذلك فإن صورة مغايرة تماماً للصورة التي رسمها الناس لها قد تكونت في داخلي، ولكنني لم أتأكد ما لم أرى..

- (2) -

سمعَت عني وأرادَت أن تراني لأنها بحاجة إلى مُخَلِّص، فلعلي أكون الملجأ والمَشكى والمُخَفِف.. فلم تخب ظناً.

جاءت بحجة معينة، وعندما عرفوني بها... صُعِقتُ، ارتجَفتُ، وارتفع الدم إلى رأسي فجأة، وجلستُ كأني سقطتُ، واستعملتُ سلاح التدخين لإخفاء ارتباكي. وبنظرة فاحصة ومدبَّرة، هذه النظرة مسَحَت كل ما قيل عنها، كأنني أتعرف بامرأة أخرى غير تلك الضحية.

عـــرفتُ فـــوراً أنها جاءت لأجلي، أنا، - وقد اعترَفَت لي بذلك فيما بعد - وبقيتُ طوال ذلك النهار مسجوناً في صورتها. أكرر اسمها حتى أصبح مألوفاً وجميلاً.

Twitter: @ketab_n

كـــيف لي أن أنـــسى تلك النظرة المُحَمَّلَة بمعاني الرجاء والحنان والقـــوة الـــضعيفة، والـــضعف القوي..!. تلك النادرة ندرة الماء في الـــصحارى - أنا الذي أتمتع بذاكرة تخرق الحديد - كيف أنسى، بعد فـــوات الأعوام، أنها قدَّمَت نفسها لي بطريقة بالغة البساطة والسريّة. وتلقـــيتُ الإشارة وسط بعض العيون، تلقيتُ الإشارة رنيناً يكاد أن لا يُـــسمَع، في هـــذا القلب الذي أتعبته رعاية الورق والانتظار والخواء اليومي وندرة وزيف العواطف..

وهكذا فقد اتسع الرنين ليتحول إلى رعد.

وقررتُ: لابد أن أراها مرة أخرى.

- (3) -

زرَعَتنا السيارات على مفرق الطُرق، أنا وهي، نتجاذب القلوب ونـــشتكي لبعـــضنا مـــن متاعب السفر وصعوبة الحياة وسط الدغل. نـــتجاذب أطراف الحديث، بينما يُخفي كل منا كلمة سرية توشك أن تطفر على اللسان. كلمة نقولها ونستريح.

عـــندما طلـــبتُ أن ترفع يدها أمام السيارات، لأنهم يستجيبون لإشـــارة المـــرأة ولا يـــستجيبون لإشارة الرجل، أخذتنا سيارة بيضاء صغيرة، وجلسنا في المقعد الخلفي، تفصل بيننا الحقيبة، بينما احتل المقعد الأمامـــي رجـــل ذو شـــارب غليظ، كأنه أحد القراصنة، إلى جانب الـــسائق. وكان منظرهما يُذكر المرء برجال البوليس السري، غير أنهما كانا لطيفين حين تكلم أحدهما وأعطانا برتقالتين.

كنت قد أخبرتها عن الانطباع الذي خلفه في نفسي كلام الناس وقلت: "لقد تخيلتكِ سمينة". ضحكَت فذهب خوفي.

Twitter: @ketab_n

كنت أنظر إلى يديها الصغيرتين تقشران البرتقالة بطريقة تدعو إلى الخَـبَل، تلك الطريقة البسيطة دائماً، وأظافرها المصبوغة دائماً، وشفتاها المصبوغتان دائماً.. وعطرها دائماً دائماً. فقالت: "تفضل". وقلـت لنفسي: آه.. لقد تذكرت الخطيئة الأولى: التفاحة الحوّائية الـتي أخرجَت آدم من الجنة، فلابد أن تعيده البرتقالة إلى الجنة مرة أخرى.

إننا، أنا وهي، وحيدان، لسنا غريبان عن بعضنا أبداً. شعرتُ أنني آخر رجل على الأرض، وأنها آخر امرأة على الأرض. وشعرنا معاً، أننا سنواجه بعد قليل، ربما هول عواطفنا المتوحشة الفائقة.

عندما قالت: "تفضَّل". أحسستُ فوراً أنها لي - لا أقصد البرتقالة طبعاً - المرأة لي، ذات الاسم المُحاصَر بحرف الهاء من طرفيه[1] - الهاء الذي يلتف كالحبل. (هـــ..).

قالت: أنت أديب؟.

قلت: من قال هذا؟.

قالت: الناس طبعاً.

قلت: نعم.

قالت: هل أنت متزوج؟.

قلت: لا، لقد تزوجتُ الكتابة.

لا أدري كـيف أحسـستُ بالحرج لسؤالها الأخير. لقد كذبتُ فعلاً. وكيف لا أكذب وهي الخارقة، الفائقة في الذوق، وكيف أقول: "نعم، أنا متزوج. وأريدها لي؟. وكيف.. وكيف..؟؟".

عـندما نـزلتُ عن السيارة وتركتها، رفعَت كفها تحية الوداع،

---

(1) اسمها: هاشمية.

Twitter: @ketab_n

فـــتأكدتُ أننا سنلتقي مرة ثانية بعدما أوصتني بكتابة رقم السيارة أثناء النـــزول، فكتبته على علبة الكبريت.

ظللتُ أقول لنفسي: كيف أكذب؟!.. وبعد أن صارت السيارة نقطـــة في الـــشارع، وفي أثناء عطلة نهاية الأسبوع، لم أغادر الفِراش ليومين، لأنني كنتُ أحلم بذات الهاء وأشعر بالذنب.

قلـــت: ليست هذه المرأة التي يجب أن تكذب عليها يا حسن.. فلماذا إذن؟!!.

وبـــدأتُ أعد الدقائق لأعترف.. وهكذا وصلها خبر اعترافي عن طريق الناس أيضاً.

- (4) -

جاءت مرة أخرى بعدما دعاها زميلي (همام) إلى الغداء، وأعرف بأنها جاءت لأجل معاتبتي فقط.

لا أذكر التفاصيل، لأن الذي حدث فيما بعد أنساني ما أردتُ أن أكتبه.

قالت: لماذا كذبتَ عليّ وقلتَ أنكَ..

قلت: كل الرجال يكذبون على كل النساء لأجل الحب.

وذهبت.

- (5) -

أعطيـــتها برتقالة لأُذكرها بالبداية.. فأكلَت وترَكَت لي النصف. كـــنتُ وراء المنـــضدة أعضّ الخبز، وأحفرها بنظراتي، وكانت تبتسم وتهرب بوجهها عني، تغطي وجهها بكتاب.

فعرفتُ أنها البداية.

Twitter: @ketab_n

- (6) -

جاءت تلك المُعجزة، فدخل الجمال كله إلى الغرفة.

وكتبتُ: "إلى جيش من النساء.. أعنيكِ أنت.. أيتها النصل في القلب. أعترف أنني عرفتُ نساء كثيرات، لم تعطني واحدة منهن طعم الإحساس بالخسارة مثلما فعلتِ. ولم تعطني واحدة طعم الربح مثلما فعلتِ.

الخسارة: لأنني ضعتُ وتخبطتُ قبل أن أجدكِ.

والربح: لأنني وجدت كنز حياتي الضائع.

أعترف: لقد اهتززتُ اهتزازاً عنيفاً. كيف أصف، أنا الذي أسرجتُ اللغة وركبتها.. كيف أصف هذا الاهتزاز؟!.

لقد كنتُ أرتجف لحظة اللقاء. وأرتجف الآن حين أكتب لكِ وعنكِ. إنني، أنا الرجل أبكي الآن، وقد كنتُ أسمي نفسي بخيل الدموع.

أنا الذي عايشت صدمات الناس، وفكرتُ بأهوال قيامتهم، حضرتُ مراسم دفن الأعزاء، ولحظات الفرح ذات المذاق الفلفليّ.. كنتُ أعتقد أنني ميّت المشاعر، وصار هذا الاعتقاد نظرية لم يدحضها أحد سوى (هاشمية).. الآن.. هل أُسميكِ حبيبتي؟. هل أقول بأنني أحبكِ؟.. يا لها من كلمة باردة وقديمة ومُستَهلَكة!. كلا. لا أعرف كيف أصف.. إنني أؤمن بكِ إيماناً.. وأنتِ تغطينني بمشاعر فوق الاحتمال.

أقول: عندما تمدين لي يد الوداع.. سأبكي هذه المرة أكثر من جميع أطفال العالم. جسدكِ يحيي الجواهر، أيتها الملكة.. افتحي أبواب العيد. أنتِ المكبَّلة بشعبكِ، تمسحين هامة الخائف فيصير قدوة للأحرار.

إنني أتساءل: كيف اقتربنا بهذه السرعة؟!. كيف ألقينا سيوف الزيف الاجتماعي وقدنا السلام؟!. كيف التصقنا ببعض تلاصق الأعزاء

Twitter: @ketab_n

الغائـــبين؟!.. وكـــيف أصابني الإغماء بعد رحيلكِ عني؟!.. تحسستُ نفسي وقلت: لابد أنني أحلم.

أحســـستُ بالخـــسارة لأنني لم أتعرف عليكِ منذ زمان فتكونين زوجـــتي. لن أخدعكِ أبداً. لن أكذب عليكِ بعد اليوم. ستكونين الماء بالنسبة لي، في صحراء العالم.. ستكونين مُحرِّك الإبداع والأدب.

ســـأكون أفـــضل لأنكِ حبيبتي. سأحارب كل الناس لأجلكِ. ســـأكون جميلاً ومهذباً لأنكِ حبيبتي. إنكِ تمنحينني فكرة معنى الحياة كما يمنح الثقب للعصفور فكرة بناء العش.

لقد أحببتكِ بلا حدود.. أُقسم بالأدب الذي أكتبه، والذي لا أُقسم به كـــذباً، لأنني استهلكتُ حياتي فيه. لأنني لم أعرف في يوم من الأيام مشاعر الأنانـــية والخديعة.. ولم أكتب لأحد إلا عندما أكون في قلب الألم وفيضان المشاعر.. لأنني لا أكذب في الكتابة أبداً مثلما قد أكذب في الكلام أحياناً.

لم أنم لحظـــة واحـــدة. لم أهدأ.. لقد تركَ عطركِ في الغرفة أثر السحابة بعد الجفاف.

أعتـــرف أنني أتحوّل إلى مجنون عندما أُحب، لأنني لا أعرف حالة الوســـط والتردد.. ولأن المسألة خارجة عن طوعِ يديّ، ولأنها خارجة عـــن قـــدرة عقلي في التحكم بها.. لقد جُننتُ بكِ يا مركز القلب.. وهذه شهادتي.

أنا

حسن مطلك

الجمعة 30 كانون الثاني 1987

الساعة 7 صباحاً

* * *

Twitter: @ketab_n

وكتبتُ:

إليكِ مرة أخرى.. مرة بعد مرة.

عزيزتي، أيتها الصافية صفاء الينابيع.

يقولـــون أن العاشق يفكر بقلبه لا بعقله، ولقد أصبحتُ متأكداً الآن من صحة هذه المقولة، فقد أطفأتُ الضوء وأردت أن أنام بسبب ألم شديد في رأسي، غير أنني بقيتُ أتقلبُ في الفِراش، ثم أشعلتُ الضوء وبدأتُ أكتب لكِ دون أن أهيأ للكتابة.

لـــديّ الكثير من الكلام الذي لا ينتهي ولن ينتهي أبداً.. ولكنني محتار من أين يجب أن أبدأ؟!، فليس ثمة ذكريات تجمعنا فأتحدث عنها، لذا سأتحدث عن نفسي – مع الاعتذار –.

ســـأحكي لكِ: لقد توقعتُ مجيئكِ طوال نهار الجمعة. كنتُ أفتح الـــباب كلما سمعتُ صوتاً أو تخيلت صوتاً.. ولكنني أصاب بالخيبة في كل مرة.

لقـــد طُـــرقَ باب غرفتي مرة أو مرتين، فطرتُ إليه معتقداً أنكِ أنتِ.. ولكنني اكتشفتُ أن عصفوراً اتخذ من الباب عشاً له، فهو يحكَ منقاره، أو يطير، أو يحط.. فأتوهم.

عـــندما تأتين سأريكِ مكان العصفور. لقد وجدتُ هذا الصباح بيضة قرب مقبض الباب، كان قد وضعها تواً، وكانت دافئة وصغيرة.. وقلت: إنها بداية طيبة وفأل جيد..

لقد منحتني هذه الحادثة الصغيرة دفقة عاطفية قلَبَت جوفي طوال النهار.. وحتى هذه الساعة.

ظللتُ أمد عنقي من زجاج الشبابيك أراقب طريق القرية كذئب وقـــع في كمـــين.. بدأ الألم منكِ.. لا بديل عنكِ أبداً. تلك الضحكة النادرة التي أسمعها الآن تهز جوانب المكان، ذلك البياض المُشِع، الالتفاتة

Twitter: @ketab_n

الذكية، العينان المعلَّقتان في هواء الجهد الإنساني.. تمحوان المشقة وتعب اليوم.

عيناكِ أيتها الساحرة البيضاء تقرباني من الجنة.. عيناكِ.. آه، لا شيء يمكنه أن يعادل تلك النظرة المليئة بحنان الأنهار والأمهات.

كنتُ أبني أحلامي على أمل وجود امرأة مثلكِ؛ تضع العاطفة فوق كل شيء، وتقول مباشرة أنها عاجزة عن فهم شيء عدا لغة العشق.

حقاً لقد جاء هذا الفهم متأخراً، بعد أن عدتُ بذاكرتي إلى الوراء، وعملت هذه الذاكرة بقوة نووية تقريباً.

لقد جربتُ جميع أنواع الخيبات.. وعملتُ في أغلب الأعمال.. في الجليد وتحت الشمس الحارقة، التقيتُ بشراً.. نساءً ورجالاً. وكنتُ أفكر دائماً بالمرأة التي سأحبها في أول لقاء.

لقد تزوجتُ بتدبير مكيدة اجتماعية، لأنني يئستُ تقريباً من أن أجد المرأة التي تخترقني بلا مقدمات طويلة.. ولا ملاحقة.. فكنتِ أنتِ. فيما بعد. متأخرة للأسف، ولكن يا صديقتي.. يا حبيبتي، لن أستطيع نسيان هذه العاطفة أبداً. سأكون وفياً حتى لو لم تكوني أنتِ وفيّة معي. ولن أجبركِ على فعل شيء لا ترينه أنتِ مناسباً.

أنتِ حُرّة بلا حدود، لن أتبعكِ أبداً.. ولكننا سنلتقي كلما سنحت الفرصة، هنا أو في مكان آخر. نتحدث، نتعانق حتى نسقط من التعب. سأسعى لكي تكوني نقيّة أمام نفسكِ أولاً، ثم أمام الناس.

حقاً لقد جمعتنا رغبة شديدة. كنتُ أعرف أنكِ تريدينني، وكنتِ تعرفين أنني أريدكِ.. وهكذا كان الأمر بسيطاً وعظيماً. لقد استجبنا

Twitter: @ketab_n

لـــرغبتينا بـــلا تردد. إنني أذكر قول أحد الشعراء في هذا الاتجاه، كان يقول: "أُقتل طفلاً في المهد.. ولا تقتل رغبة"[1]..

ســـتجدينني بسيطاً ومتفهماً لكِ، وستعرفين أنني كتوم لا أوزع الأســـرار لأحد، وستلمسين بيديكِ الرائعتين مقدار وفائي، وستعرفين أنـــني أحببـــتكِ حباً عظيماً.. دون أن أسأل: لماذا؟ وكيف؟.. إن في داخلي نهراً من الفرح يحتاج إلى مَن يُزيل ضفتيه لكي يفيض.

ألا مدي يديكِ وإصبعاً من أصابعكِ وأخرجيني من مغاور الحزن. إنـــني أحـــبكِ، أيتها العجيبة.. تكمن في عينيكِ لفتات الأطفال. فيكِ رائحة الأراضي المثمرة، رائحة الحدائق. لقد لامس قلبـــي قدميكِ.

سمعـــتهم يـــتحدثون عـــنكِ، فـــازدادَ إعجابـــي بكِ. سمعتهم يشوّهونكِ فأحببتكِ أكثر. ولقد تأكدتُ بنفسي أنكِ نقيّة، وليست لكِ تجربة كبيرة مع الرجال.. أتذكرين؟.. كنتِ ترتجفين عندما... إنني لا أستطيع أن أنسى.. يا للهول.. يا للهول.. أيتها المرأة!.

لابـــد أنكِ أغضبتِ الناس لأنكِ لم تكوني سهلة كما يتصورون، ولذلك فإنهم يطرحون قذارة نفوسهم كلاماً..

ستسمعين مني أجمل الكلام، من فمي إلى قلبكِ مباشرة، من عينيّ إلى قلبكِ.. من قلبكِ إلى قلبـــي..

فاقبلي قُبلاتي في الختام.. وإلى لقاء قادم.

حسن مطلك

الجمعة 30 كانون الثاني 1987

الساعة الحادية عشرة مساءً

* * *

(1) وليم بليك.

Twitter: @ketab_n

جاءت تلك المُعجزة، فدخل الجمال كله إلى الغرفة.

جلسنا بمواجهة الحائط، تتشابك أيدينا، وكانت تفتعل الانشغال دائماً. انشغلَت بالقلم، بالدفتر، بالراديو..

وقالت: لا تنظر إليّ هكذا.

قلت: أنت جميلة.

وأحطتُ وجهها بكفيّ. وجهها الدافئ كالرغيف. تناولتها ونسيت المنضدة، نسيت الحائط، العالم، الأصوات. كنتُ مُفرَغاً من كل فكرة، على وشك البكاء.. أحسستُ بضيق المكان.. بضيق نفسي.

لم يكن ثمة موضوع معيّن يصلح لبداية القصة، أعرف أنها ستكون قصة حب.

وقفنا، أنا وهي، في لحظة واحدة، يخبرنا حدس واحد، أن نُجرب دفء بعضنا ونلتصق.. فكانت تمتز تحت ذراعيّ، وتحتضنني، وكنتُ أرتجف..

لم أذق طعم العاطفة بهذه الكيفية من قبل، هولها، جسد الأنثى المُمَغنَط، حرارة العثور بعد الظمأ وتعب الانتظار.. واكتشاف سطحية التجارب القديمة.

إنها لي، تمنح نفسها بكرم فائق، وتقول: كفى. حين سمعتُ تنفسها المرتفع هزمني الإشفاق والرقة الغالبة.. فسقطنا معاً على الكرسي.

سألتها عما دفعها إليّ فانزعَجَت.. واعتذرتُ.

وأعدتُ السؤال بطريقة أخرى، فعلمتُ أنها ضائعة في حطام التجارب ومحاولات الانتقاء، ضائعة في الخدعة وفُرص التسلية والوعود، واحتمالات ضعف الوعي، والشرود، والهروب إلى النوم.. لقد بعثَرَت صدقها وقوة عواطفها في تجارب وقتيّة. وقلت أنها لابد أن تعتبرني

Twitter: @ketab_n

محطة، بعض من تلك المحطات التي تُذكرنا بفكرة العار، وعليّ أن أقاتل نتائج خبرتها التالفة، وأحفّزُ شعورها القديم بخير العالم وخيرها ونظافتها، بالسلاح الوحيد الذي أمتلكه: الكلمة والعاطفة الصادقة.

- (7) -

عندما ذهبَت شعرتُ أنني أفقد أحد أعضائي.

ورميت نفسي على السرير، ولازلتُ أرتجفُ.

كانت قد جلبَت معها أحمر الشفاه، فهي تقول، إنها تعرف أنني سأمسح شفتيها، وعليها أن تخرُج مصبوغة مثلما دخلَت. فكرة حسنة، لقد توقعت ذلك.

تجولتُ في الذاكرة، خلال ركام الأخطاء والتسليات والانكسارات والهزائم العاطفية. ذاكرتي المليئة بصور النساء واللقاءات السريّة على المصاطب وفي الغرف الخلفية. كان عليّ أن أُفرِد أصابعي وأعد:

أولاً: عرفتُ امرأة توفيت على أثر قُبلة، ولم تستفق إلا في غرفة الإنعاش.

مراهِقة علقت روحها في شفتيها، وكانت تعتبر الكلام بديلاً عن اللمس.

ثانياً: عرفتُ امرأة قرب مدفأة شتائية، قطعتُ أحد أساورها النحاسية.. وبعد أن ذهبت بقيت متعلقاً بالسِوار.

ثالثاً: عرفتُ امرأة تبكي عندما ألتقيها. كانت مجرد فرج وفم. كانت تحب الرسم لأني أحبه، تقرأ لأنني أقرأ. وعندما باعدنا الوقت تركَت كل شيء وامتهَنت الحياكة. كانت تحب لكي تتزوج.

Twitter: @ketab_n

رابعـــاً: عرفتُ امرأة أعطيتها كل شيء و لم تعطني شيئاً. كانت مدفـــوعة بأوهـــام التقسيم الطبقي والجغرافي، ومرض الظهور والتقدير الاجتماعي والتصفيق.

خامساً: عرفتُ امرأة أرادت منافستي في صفات الرجولة، وكانت تتمنى أن تمتلك شارباً وعضلات.

سادســـاً: عرفتُ نساء كثيرات كنّ مشغولات عني بالتهام الطعام وجـــنون شراء الملابس وفساد المجلات التجارية والإعلانات وتصاميم السيارات والركض وراء الموضة.

سابعاً: عرفتُ نساءً لجأن إلى الثقافة كبديل عن الجمال.

قيود ومسافات وأفكار بالية..

ثمة صفة واحدة جمعتهن جميعاً على اختلاف أشكالهن وتصرفاتهن: كلـــهنّ يشعرن بالنقص. ليس هناك امرأة واحدة تقول (أنا) وتعني ما تقـــول. لـــيس هناك امرأة تعتز بأنها امرأة. سريعات العَطَب، أنانيات بطريقة مرضيّة. لم تفهم أية واحدة، طوال سنوات العلاقة، أنني أختلف عن الرجال.. سوى (هـــ).

قلـــت؛ إني أُشرّف نفسي بهذه المرأة التي وإن لم تعرفني لحد الآن، غـــير أنها بدأت بالخطوة الأولى. ابتدأت مني وتناست نفسها. وضعت نفسها بين يديّ وقالت: خُذني إليك.

وأخـــذتُها بكـــل ما أملك من قوة وإدراك وعاطفة، وأحسستُ للـــوهلة الأولى، أنني أنجح لأول مرة. أحسستُ برجولتي وخصوصيتي. أعطتني القوة في القول والتصرف. منحتني الاطمئنان فمنحتها الصدق.

.. أيّة هزّة أصابتني!!.. أيّ ثأر قديم!!.

قالت (هـــ): إنكَ تختلف عن الرجال.

وقلتُ بعد ذهابها: إنها امرأة حقيقية.

Twitter: @ketab_n

سأبقى مديناً لأرض الدغل لأنها أعطتني أجمل الملكات.
اندملَت الجروح، واستراح القلب، وثَبَتَ الحُب إنشاء الله.

- (8) -

كتَبَت لي هذه الكلمات:

"مـــاذا يفعـــل الإنسان اليائس؟.. أيندبُ حظه العاثر؟!، أم يقف مكتوف الأيدي ينتظر مصيره المحتوم، أم يمشي في طريق الضياع ليفتش عـــن نفـــسه في نفسه الضائعة التائهة في عالم مليء بالوحوش البشرية الظالمـــة بأحكامها على الناس؟!.. لا أدري ماذا أقول، ولا أدري ماذا أفعل؟!.

أبحثُ بين الناس عن نفسي لعلي أجدها. لا أعلم مَن أكون ولمن ســـأكون، وما قد خبأه القَدَر لي!. أنا إنسانة معروفة لدى الناس بكل وضوح، ولكنني مجهولة لدى نفسي.. حقيقة ذلك القلب الذي أصبح مجـــرداً مـــن الأحاسيس والمشاعر بسبب حالة الضياع التي أعيشها في داخلـــي، وحالة الصراع الشديد بين شخصي الظاهريّ وبين شخصي الباطنيّ.. لعلي أعرف إن كنتُ على خطأ أو على صواب في تصرفاتي أمـــام نفـــسي وأمـــام الناس، وانجرافي في متاهات لا تليق بـــي، وفي طُرُقات يصعب عليّ تخطيها.

إنـــني أبحـــث عن السعادة ولكنني لا أجدها، وأبحث عن الحُب وعمن يملأ حياتي ويُنسيني ما أنا فيه من العذاب والشقاء.

لا أستطيع أن أصف أكثر، لأنني إنسانة بلا هدف، ولا أعرف ما ينبغي فعله؟!".

هـــ 1987/2/15م

Twitter: @ketab_n

- (9) -

قلت: ماذا تشعرين تجاهي؟.

دفَنَت وجهها وقالت: لا أدري.

أســـدلتُ مسمار الباب، ووضعتُ خرقة فوق ثقب المفتاح ونمنا معاً في السرير.

كانـــت لمساتي تهزّ جسدها الطفولي، وهي تحاول أن تذوب فيّ، تلتصق أكثر.

كـــنتُ أميناً معها، وصار زفيرها شهيقاً لي، وصارت عضواً مني، بعـــثت الخَـــدَر. شعرتُ بأبوتي نحوها. وهي ساخنة ولّما تزل ضائعة في الحطام.. فابتدأت اللغة.

رميتُ عنها حِمل الماضي.. زرعتُها في الثقة مباشرة.

قربتها إلى الأمان.

Twitter: @ketab_n

- II -

- (1) -

دخَلَـــت التجـــربة في طور التأمل والذكرى التي لا يمكن محوها بسهولة، بعدما تجاوزنا الانفعال الأول ورسخنا في الحُب. بعدما كانت أيديـــنا تـــتلامس في الظلام كأعميين، نبحث عن جهاز النبض، ذلك الـــذي يرفّ في الصدر بحرارة وتدفق لا يمكن احتماله إلا بمحو سلوك الخـــوف والتقـــرب. عدنا إلى اللحظات الحاسمة، نلتصق عاريين كأننا نتطهر، بينما كان ركام الماضي يستيقظ في داخلها فتصبح عاجزة عن مزيد من اللذة والاسترخاء حتى تصبح عاجزة عن العطاء، فأنقلها بضع خطـــوات هامة عن إحساسها المُدمِّر بالذنب، وأؤكد لها أنها نقيّة طبقاً لفهمي لها وشعوري بها.

وأشـــعر، عـــندما أغمض عينيّ، بعدما يخلو المكان من حركتها وأنفاسها التي لا تنقطع وعطرها.. أشعر أنها لا تعرف معنى نفسها، لا تعرف أنها نظيفة ومغسولة بينبوع طيبتها، وسلاستها سلاسة النافورة.

أشـــعر، عـــندما تـــذهب، أنها مُشَوَّشَة ومُرتبكة، وقد لا تتعدى معرفتها، عن نفسها، أكثر من صورتها التي تراها في المرآة، الصورة التي يرسمها الطقس، ووضع النفس. وأعرفُ أنها جميلة أكثر مما تعتقد، ونقيّة أكثر مما تظن.. وأنها أكبر بكثير من الصورة التي تحملها عن نفسها.

تلـــك المرأة - حين أصِفُ - وجه يتحدى وقار الحكمة ويستثير غريزة الرقص. وجه ظَلَّ مصموغاً، ثابت النمو، منذ عشر سنوات على

Twitter: @ketab_n

ما أظن. لم يُدمِه الخدش ولا تجريب المكياج، ولا الانكسار الذي يشبه الخيانة. وجه يعيدني إلى ذكريات فارّة. يتبدل لحظة اللمس كوجهين ينافسان بعضهما، يسكبان - بلا مقدمات - دفقة من الشعور المُدمِّر فيما يخص قوة الشيء ونسيان الزمن. شرود شبيه بالتبخر.. تضيع اللغة ويبدأ الفعل، فلا أتأكد من وعيي ووجودي حتى أُحاصره بكفيّ وقُبلاتي.

أشعر أنه سيذوب حالما أضع يديّ، غير أنه يزداد حضوراً وإشراقاً، ويتسع ليحتل مساحة المكان. طالما أنساه حين أتعمد تذكُره.. ولكنه يأتي كانفجار في لحظات الشرود والعمل المضني على الورق. أمسكه فيقفز فيّ كالعدم إلى مكان آخر. أُشير بـ (هنا) فيتحوّل إلى (هناك). أقول (هناك) فأجده هنا.. ومَن يحتمل يا ربي؟!.

وجهها الذي تحدثتُ عنه، مُضاء بنافذتين محددتين على الدوام بضوء أسود، غارقتين على الدوام بسهولة الحركة واصطياد برق الشهوة، عينان مناسبتان، لولاهما لما استطعتُ أن أقف في نقطة التردد.. أفضلُ أن أشتهي وأنتظر، وأفضلُ الانتظار على الحصول.

يُذكِراني بعيني الباز في لحظة تتجاوز التحديد. وصفٌ فوق ما أستطيع. هناك عالياً، تطوفان في فضاء النفس المُخلخَل، ثم تنقضّان فجأة نحو مركز القلب، فأشعر بدغدغة لذيذة، أشعر بجرح أُحبه. لقد صرتُ بفضل عينيها، عديم المعنى..

ولقد فرغتُ من صراع الطموح.. وأتاني النعاس فهويتُ بوجهي.. وهويت.. وهويت.. حتى استقبلني الجسد.

الشفتان.. يا إلهي!!.. مشدودتان من طرفيهما كحافة بدء المطر. مشدودتان بابتسامتين غامضتين تنذران بكارثة قريبة.

Twitter: @ketab_n

أقول: كل هذا لي..! وأهوي.

إنها ترميني بالانتظار. وجه يعدني بالسعادة. يذكرني بفوات الأوان حتى أفقد الوزن، وأوشكُ أن أصرخ.. غير أنني أتحوّل إلى غيمة. أتحسسني فلا أجد.

- (2) -

حديث الخميس:

"وعلى الشفتين قُبلة خفّاقة، تنبض كالحيوان الصغير..". - رامبو، المعذرة فالظرف لا يسمح - أتمنى صدقيني - انتظري يوماً آخر، يومان، ثلاثة، لا أكثر - سوف لن تجدينني حياً على الأقل - طبعاً - لا حقيقة بدونكِ، هذه اللحظة على الأقل - أنتِ قمة الحياة - لا زمن إلا ما يُقضى بين طياتكِ - لا زمن إلا معكِ - كل شيء يصير بلا معنى عندما تذهبين - انتظري - انتظري أكثر - انتظري.. آه - أحبكِ - هاتِ يدكِ - انتظري - أتمنى صدقيني - أتمنى أن آكلكِ - أرجوكِ انتظري - سأبقى فارغاً من كل شيء عندما تذهبين - ... - أتمنى أن تكون هناك كلمة أكثر قُدرة من (أحبك) ولكن اللغة أصغر من عواطفنا - يداكِ يداي - زفيركِ شهيقي - نتبادل الرئتين برئة واحدة - نتبادل القلوب بقلبٍ واحد، نصف قلب - يتحوّل جسدانا إلى جسد واحد، ويتحوّل هذا الجسد إلى قلب يمشي على قدمين - أنتِ المضمونة دائماً - تجرحين وتذهبين - أنتِ الخائنة، تخونين الكذب - وأنتِ لي - أنا لكِ - أحدنا لأحدنا.. فلماذا نفترق؟ - لماذا لا نكون دائماً؟ - من أيّ شعبٍ أتيتِ؟! - تتمطين كالأطفال - ماذا؟ - لا أسمع - لأنكِ متجددة على الدوام - مِن أيّ شعبٍ أتيتِ - أعجبُ

Twitter: @ketab_n

وأنـــدهشُ في كـــل لحظـــة تسقط فيها عيناكِ عليّ – أنتِ متجددة كالفـــصول – إنها ترتاح لأنني أريدها أن ترتاح – لا تفسير لهذه الحالة – أسمـــع القلب يعصر نفسه – أسمعه يقفز إلى الجانب الأيمن – يهرب إلـــيها والكـــلام لا يكفي – لأنكِ فوق ما ينقال – بيضاء كالطحين، بيـــضاء كالـــسماء في ظهيرة قائضة، بيضاء كحبات اللؤلؤ، كأسنان الطفـــل – بيضاء كضوء العينين لحظة الشوق – تكونين ذهبيّة أحياناً، لـــيس بلـــون الذهب – تكونين برتقالية أحياناً، ليس بلون البرتقال – تكـــونين لوناً لا أعرفه (بَنـــزرقيّ، أحمر حشيشيّ؟!) بلون التسلل إلى الـــضفة المقابلـــة ليلاً، بلون الجنَّة – مشتهاة كالصحراء للبرق. البرق. البرق. برق في الداخل – لا أدري – أتمنى أن أموت في لحظة القُبلة، في لحظـــة العـــناق – إنه جزء صغير من اعترافي – وكيف يجف البحر؟.. وكيف؟.. وكيف يُطِلّ البحر ساكناً؟ وكيف يُطِلّ عاصفاً.. لا أدري.

– (3) –

ورَدَني الكـــثير من القلق. مساءٌ جاف يصلح للبكاء لأنها تركَت صـــورة علـــى الوسادة بعدما جلبَت إحدى صديقاتها لتتعرف إليّ، أنا المُعجِزة بنظرها. بقيتُ أتحدثُ وأُقنِع. وبعد ذهابهما..

اليوم هو السبت. تركتني وحيداً في فراغ وبرد الطقس فأدركتُ على الفور بأنني سألتقي بأشخاص منكسرين، مهزومين. أدركتُ أنني أمتلكُ طاقة إنسانية كبيرة ستضعني أمام تحوّل جديد جسَّمَته تلك العزلة وآثـــار تلك المرأة، وإنني سأُدَشِّن رحلة جديدة دامية لأحاسب نفسي. أقهم وأُدافع أمام الجدار وسط الهواء المُخَلخَل. أحس أحياناً أنه سينبت لي قرن في جانب رأسي فأتلمس، كأنني سأتلف بعد قليل، وتنبعث مني

Twitter: @ketab_n

رائحـــة الأشياء العتيقة. رائحة تُذكرني بمعارك النفس أيام المصارعة مع الموقـــف وجـــدواه حتى أتذكرُ أغنية أمي: "موّال موّالي.. حال العَدَم حالي..".

يـــا له من اختناق!!.. أيها الإنسان يا صديقي المنكسر. لقد جعلَـــتني هذه المرأة أتذكر أخطاء الرجال وظُلمهم للمرأة على مدار التاريخ الإنساني. وضعتني مباشرة أمام الجرح لأعترف لها باسم جميع الرجال، وأتوب إليها عن خطايا جميع الرجال، فلابد أنها أصبحَت أصـــغر حجمـــاً بفعل الطَرق والمحاصرة، ولابد أنها صارت (أصغر عقـــلاً) بفضل التفوق الأهوج، والقسوة. لقد وضعتني في مستنقع التاريخ لأرى العالم منذ البداية: الدماء، وتطور شكل السيف وشكل الأرض "مـــن صورة قرصٍ طافٍ على المياه.." حتى زمن اكتشاف فكـــرة الدوران. ومن العراء والمطر الدائم ومشاعية الرزق والتكاثر وســـياط الأقوياء والنوم على الشواطئ، ومهازل الحملات الجماعية لاصطياد الوحوش، وعصر الحجر والنار والبرونـــز والطيور الخرافية الـــتي عـــبرت بقـــوة أجنحـــتها حاجز الفضاء ثم احترقت في غاز الهيدروجين.. رأيت مشاهد الذبح وعفن الفضائح حتى زمن البارود وانشطار الذرّة.

يكفي أن أغمض عينيّ: أنا مذنب بما أنني رجل. يا للخسارة، لقد أضعنا ثقة الله، ومسحنا المرأة بشهوة الدم وأقفال صناديق الزينة ورنين يوم العرس.

كانت يدها صغيرة كعصفور تشير خلال العصور فأتبع، تسير بـــين لمعان السيوف فأركض إليها فوق برك الدم.. وأجدها ضالة ومُعَنَّقَة في حزنها، وأجدها مُداسَة بحوافر الرجال. مسكونة بشيطان الطمـــث، ضائعة في ملابسها وخواتمها. وأجد أنني قد ارتكبتُ في

Twitter: @ketab_n

تاريخـــي أبشع الجرائم. أنا (الرجل) أعبدُ نفسي وأقول: الله. أحب نفسي وأقول: هي. أعذبُ نفسي وأقول: هي. وأراها تبتسم فيزداد غضبـــي.

أتوب إليها باسم جميع الرجال.

- (4) -

نفس المساء. السبت. يصلح للبكاء.

لو هدأتُ قليلاً لأخذتني الفكرة إلى نفسي.

إنـــني أتجنب هذا الصِدام منذ زمن، حسبتُ أني نسيتُ فكرة العَدم وأورام الضمير ولحظات المواجهة. قررت أن أستيقظ فالوقت قصير، وقد ذهب الجميع إلى النوم. إنني أتعرض لمؤامرة كبيرة تحت خدعـــة التطمين، وأنا منكس الرأس بين الأثاث. سأخوض بعد أيام قلـــيلة معركة التأمل، عندها، أعرف أنني لن أرحم نفسي. سأُجَهِّز الـــسلاح الكافي من الكلمات لصد هجوم الأفكار، أو احتواء هذا الهجوم.

يجـــب أن أنتزع قميص الراحة، وأضع نفسي في حرارة التجربة، فلم أعد أحتمل هذا الهدوء.

- (5) -

إنني أرتعش لمجرد التفكير بأنني قد أتعلق بها إلى حد الجنون.. وقد أرتكب حماقة، توصلنا معاً إلى الكارثة. إنني أخاف أن أُحبها أكثر، فلا أحتمل الكتمان ولا الصبر.

Twitter: @ketab_n

- (6) -

مَـــن تكون هذه المرأة التي جذبتني من فترة الاستراحة، وعلّقتني كحادثة؟!.

لم يحدث لي ما حدث لو لم تتحداني براءتها.

آه.. لو لم تكن طفلة، لما حدث ذلك.

إنني أخجل من تساؤل: هل هي آخرِ التجارب؟.

فقد جعلتني أكتفي، وجعلتني أشعر أنني سأموت بعد قليل.

- (7) -

لقـــد عجـــزت لغـــتي في مواكبة هذه التجربة.. فمن أين أجيء بالكلمات يا ربـــي؟!.

- (8) -

إن لحظـــة انـــتظارها تعـــادل حـــادث عطش.. لحظة طويلة في حـــسابات مـــن ينتظر الفَرَج. وهي تهطل دائماً كغيمة مفاجئة، عندما أقول: إنني سأتمزّق بعد قليل.

فكيف الحال، إن قالت: "سآتيكَ هذا اليوم". ولم تأتِ؟!. كيف سينقـــضي الـــنهار، وكيف يمكن تحمّل الليل؟!.. وقد تركتني الصغيرة كأحد الكراسي، جماداً قابلاً للصدأ والكَسر.

لقد أعددتُ لها نفسي، حلَقتُ ذقني، وفرَّشتُ أسناني لكي أبتسم لها بوضوح، وصففتُ شَعري لتفرح بـــي، وهيأتُ مقعدها قبالتي. ولم أُحضر لها الكلمات لأنني سأحاورها بنبض القلب.

Twitter: @ketab_n

سمعـــي مرهف نحو الباب، أية خطوة في الممر، أي صوت.. أقول أتـــت. وفي هذه اللحظة، كأني أتوقع الانفجار، أحسبُ الدقائق بهيئة السنوات. ودقائقها طويلة.. فمن أين أجيء بالصبر يا ربـــي؟!.

لقـــد حكمتُ عليها بالسجن في دهاليز القلب، حكماً قاسياً لا يقبل الاستئناف. وأشعر بنفسي سجيناً.. فمتى أتحرر برؤيتها؟!.

تلـــك النادرة نُدرة الذهب. تطعنني فلا أقول: إنني تألمت. تُهملني فلا أقول: لقد هجرتني. تعذبني فأقول: ما أكرمها!!.

ويـــا لي من عاشق!!.. جمعتُ حوادث التاريخ، وجغرافية الموج والعواصـــف، وسَـــكينة المـــوت، والإيمان.. وجمعتُ غضب الرجال الأشـــداء.. جمعتُ كل شيء في نفسي لكي أثب وثبة النمر، وثبة أشد الوحوش قسوة؛ وثبة للقُبلة لا للافتراس.. ومن أين أجيء بالصبر؟!.

يا ربـــي: إنني أُحبها بجنون لا يباح لأحد.

يـــا ربـــــي: لقـــد قَسَّمتني الصَبيَّة وجمعتني، فأضف عمري إلى عمرها. خذ مني وأعطها.

لقـــد أدركتُ أنني لن أستطيع شيئاً بدونها. وهل سنفترق في يوم من الأيام؟.. فمن أين أتنفس، وكيف أعيش وقد سَرَقَت قلبـــي.. يا رب.

- (9) -

مـــنذ يـــوم الخميس. بينما كنتُ نائماً، غاطاً في أحد الكوابيس، سمعتُ خطواتها في الحلم.. فاستيقظتُ، فكانت خطواتها في الممر فعلاً. لحظة لا يمكن إحصاؤها، حتى إنني لم أعد أُميّز، لولا علبة السجائر التي أحضرتها في الوقت المناسب، عندما نفذت سجائري والتجأتُ إلى النوم تجنباً للحاجة إلى الدخان ووجع الرأس بسبب الحاجة إلى الدخان.

Twitter: @ketab_n

لـــو لم أستيقظ فأجد العلبة، وأشم آثار العطر في ملابسي لقلتُ إنني رأيتها في الحلم.

كانـــت قـــد انقضَّت عليّ، لفترة قبل سفرها. وكنتُ بارداً تماماً تجاهها، لأنني لم أُصدق أنها جاءت ثم ذهبت فعلاً.

لا أذكـــر أنـــني رأيتها تماماً. لم أر وجهها، لأن عيناي لا تزالان ملصقتان بشمع النوم. وكان النوم بمثابة هروب يختصر لي الوقت حتى موعد رؤيتها مرة أخرى.

ومنذ يوم الخميس، صرتُ حاد العاطفة، شديد الحساسية. صرتُ أتذكر هذه المرأة، كأنني التقيتها قبل سنوات، لا قبل أيام. ذكرى امرأة طَعَنتني وذهبت.

أعـــود مرة بعد مرة إلى آثارها. هنا جَلَسَت. هنا قالت: أحبكَ. وقبَّلَتني.. متى حدث ذلك؟.. لم أعد أذكر.. وخفتُ تماماً، إذ ظهرت لي مـــن جديد مشكلة الزمن، وصراع الوقت.. كأنني لم أعش. كأنني من بلاد أخرى!. أذكر؛ كانت مجرد بطلة من أبطال قصصي.. لم تكن إلا (عزيزة القطّان) بطلة (دابادا).

صرتُ بمعرفتها حاد الطبع، شديد التأثر. لقد أعادتني إلى نفسي. جعلتني أكثر صبراً ووعياً وحساسية. ما الذي عليّ أن أفعل لكي أُقدم شـــكري لهذه المرأة.. التي جعلتني أشكُ فيما إذا كنتُ مُحاطاً بالعالم، فيما إذا كنتُ، بالضبط، على قيد الحياة..؟!.

وفكـــرتُ مـــرة أخرى بكلمة (سعادة).. برود هذه الكلمة.. وخـــواؤها، عندما قارنتُ كل شيء (هنا) بلحظات الارتعاش أيام كنتُ مجنوناً بموسيقى (شوبان). تلك اللحظات التي لا يمكن الإحاطة بها، ولا يمكن تحديدها أبداً. كيف أُصبِح سعيداً دفعة واحدة، وبلا متاعب مُسبَقَة؟!.

Twitter: @ketab_n

إنـــنا لا نـــستطيع أن نتذكر بالضبط، أيامنا، بدون أن تكون ثمة نكـــبات وزلازل نفسية، وجرح يُنكأ كلما تقدمنا بخطوات حَرونة نحو الشيب.

إن السر يكمن في اصطياد هذه الفكرة، لكي نكون أفضل دائماً. أنا بالتحديد. إن السر يكمن في هذه المرأة، التي بدأتُ أغار عليها غيرة النمر.. أغار من السفر الدائم.

وأقـــول: إنني أصبحتُ سيئاً إلى حد ما.. لأنني أريد أن أعرف ما الـــذي تفعلـــه بعيداً عني؟! مع مَن تتحدث؟!. وأقول: إنني.. يجبُ أن أكون أكثر سِعة.

عـــندما أعـــود للإمـــساك بتلك الفكرة عنها، تقفز فلا أستطيع التحديد، وأسقط في بركة الحلم والذكرى. بالضبط، إنها مشابهة لكل فكـــرة عنها. لابد أنها السعادة نفسها مُجَسَّدَة في (هـــ) الرائعة روعة ينابيع الجبال..

الواهبة دائماً كعطاء الغابات.

- (10) -

تُسيطر عليّ الفكرة. منذ أن فارقتني اللذيذة. (في صباح أحد الأيام. كـــنتُ طفـــلاً، وقد فتحتُ عينيّ فوجدتُ كَعكَة هشّة مُحَمَّصَة أمامي، وقالـــوا: إنه العيد يا صغيري. فانتظرتُ مرور الصبيات بروائحهن الحادة، الملابـــس الفاقعة بألوان الحصاد والسماء الربيعية، ألوان حلم السفر، ألوان العيد نفسه. وكنتُ أحلم بها منذ عهد بعيد، تأتي بين الصبيات فتضمني إلى صدرها ضم المِلقَط، فألتذ بلحمها الدافئ، بنهديها الصغيرين اللذين يدفعان حافة الثوب.. يمزقان الثوب كل يوم..).

Twitter: @ketab_n

لم تكـــن إلا ذكرى في رأسي المليء بحطام البشر. أرفع وجهي: لحظـــة تعـــادل الانتصار.. كأنني أصبحتُ خالداً دفعة واحدة. عيناها اللـــتان تحجـــبان عني بقعة واسعة من السماء. أكون قد أكملتُ معنى النـــضج. حـــرارة اللقاء الآدمي بين ذَكر وأُنثى وقد ذهب الجميع إلى المقبرة.

لا فائـــدة: تحاصرني الفكرة مرة أخرى. كيف أستطيع الإمساك بتلك اللحظة الهاربة؟.. كيف أصِف؟؟.

ربمـــا تعود المشكلة، مرة أخرى، إلى حساسيتي تجاه الوقت. فكم مـــن الـــوقت مـــضى عليّ هنا قبل أن أتعرف بها؟.. وكم من الوقت أمضيتُ معها؟.

أعتقد أن المسألة خارج الوقت. أحاول أن أفهم سر هذا التعلُّق بهـــا. إنـــنا - أنا وهي - لا نريد إذلال بعضنا البعض. لا نريد غير المزيد من الثبات، المزيد من العاطفة.. إننا نؤجل دائماً لحظة القتل. نُطهّر بعضنا باللمس.. فما هي الآثار التي سوف نتركها للذاكرة؟. إنـــنا نصر على أن نكون في حضور دائم، بلا عذاب معروف، ولا عُقَد ممكنة، ولا أمل مُعذِّب. نتناول بعضنا ببساطة كما نتناول هواء التـــنفس، دون أن يحاول أحدنا سرقة الآخر، دون أن نطمح بإذلال بعضنا. نترك الوقت يمضي وأيدينا متشابكة كجذور العشب المعطر. وعيوننا الأربع تصير عيناً واحدة مفتوحة نحو الحلم. نتخلص، لحظة اللقـــاء، مـــن مشقة الجسد، وأمراض البشر بما فيها الغيرة، بما فيها طعـــنة الإذلال التي اعتاد أحد العشاق أن يجهزها للآخر بعد عذاب القلق. أشعر أننا لم نعد من سكان هذه الأرض المصبوغة بالدم.. إننا مـــن كوكب آخر لا تعني لديه كلمة (موت) أكثر من نكتة فارغة تثير الضحك.

Twitter: @ketab_n

نتـــبادل العـــناق، فيسلم كل منا جسده إلى الآخر كقربان، لا كأمانـــة. نتبادل الأجساد ونركَع معاً ركعة امتصاص الشفاه، ما تفعله النحلة حيال الزهرة. عسل الشفاه الذي يبعث الرعشة في النخاع.

- (11) -

أشـــعر بميل شديد إلى الذبول بعدما ابتعدت عني حبيبتي المشغولة بثانويات الحياة.. فِراق أليم، لأنها كانت تنقذني دائماً من فكرة التورط بفكـــرة، تُخـــرجني من السعي الدائم وراء الكآبة وتَقَبُّل فكرة الفناء والشعور المخيف بمرور الوقت..

والسلام عليها في الغياب.

- (12) -

أراني وقـــد تحـــوّلتُ، في هـــذه الأيام، إلى نوازع قديمة مؤلمة تخص مـــشاعر التدمير. أرى الأرض أمامي مفتوحة ميتة كمجد أحد اللصوص، والفضاء طَبَق سيسقط، والناس مستعدون لرفع لافتات الغدر عالياً.

أتلفـــتُ فلا أجد صحبـــي الذين كانوا يسخرون دائماً من فكرة الـــتعب لغـــرض السخرية من فكرة الموت. أتلفتُ إلى جهات الفضاء فأعـــوي مثل بعض الضواري الملتاعة. وجودٌ يصدمه وجود بين مرور الدقائـــق. أتحوّل إلى شخوص متعددة، تتحول ضدي. ألم يلوي الأمعاء ويُفتت الكبد.. فأين حبيبتي الآن؟.

لقـــد صنَعَت لي تخلخلاً في الزمن وأحيَت مذكرات الجنون. فلا شـــفاء بـــدونها، وهي تُقدم النسيان اللذيذ. تعصر عسل العالم في فمي فأقول: تخلصتُ من نهر الكآبة.

Twitter: @ketab_n

إنها تُقدم البدائل الضائعة ويصير حضورها عيداً لصفاء القلب،.. وإلا فالجنون أصبح بمتناول اليد. أكاد ألمسه كجمرة تذيب ما تَقَدم من وجع. سوف أُقبِلها وأرتاح.

- (13) -

أتركُ كل ما في يدي، وأهوي بثقلي على المنضدة. لعلها تأتي قبل هبوط المساء، مجتازة بعض وديان القرية، والكلاب تنبحها. مرة رأيتها تنـــزل الـــوادي بثقة من يتنـــزه، ملقية على كتفها رداءً متأرجحاً. كانت فوق منحدر الحصى مُحَصَّرَة بالحزام، تحمي كنوزها برداء ليّن. جسدها العجيب يجلب الرعدة، الشعور بتوقع الانفجار. الشعور اللذيذ الذي يأتي، عادة، بعد النجاة.. كأنها لا تدري، وستذهب مُتَنكّرة بعد هبوط المساء؛ تُجازِف.

امـــرأتي التي لامس جسدي جسدها مرة. كل قطعة من جسدها بمساحة الدرهم تستأثر التأمل المفجع، وتدعو إلى الانحناء والركوع لله.. فكـــيف أبـــدعها الله بنهدين صغيرين وحوض مثمر.. يُذكرني بتدفق الينابيع؟!.

ســـأحكي قـــصتها هنا.. فإن كل ما كتبته لا يكفي للوصف. نـــسيت أن أتحـــدث عن نفسي. تأتي مرتين في الأسبوع الواحد، وبين هاتين المرتين لا أستطيع الجزم بأنني موجود عاقل. تمر الساعات والأيام كرَفَّة الذبح، فارغة قاحلة، خالية من معنى الصفاء والهناءة.. خالية من كل شرط حياتي.

التجئ أحياناً إلى الورق فلا أجد ما يرويني، لا الجُمَل المُرَكّبَة التي اعـــتدتها كأســـلوب، ولا الأفكار التي لا تطاوع كما أريد مثل ولادة

Twitter: @ketab_n

معـــسرة. ألتجـــئ أحياناً إلى الغناء فأجد ضيقاً في حنجرتي.. وأبكي أحياناً. وأقول: سأبكي حتماً عندما أرفعها عن الأرض محتضناً، غير أنها تبتسم فأنسى القرار.

Twitter: @ketab_n

- III -

- (1) -

نَفَس عميق من السيجارة. على المنضدة بعض النقود، منفضة سجائر، مفاتيح، مشط مرآة، شخاطة، مسبحة، محبرة، علبة دخان، كُتب، أوراق، وعيدان لتسليك الأسنان، شفرة حلاقة، خيط مطاطي، مسطرة، ماسكات ورق، وصندوقاً صغيراً لحفظ الأقلام صنعته بيديّ من زوائد المجلات القديمة، مُزَيَّناً بحرف (هـ).

في غرفتي المقسومة إلى قسمين بثلاث خزانات حديدية مليئة بالكُتب. استعملتُ هذا القسم لنصب سريري ومنضدة الكتابة أمام الحائط. أما القسم الآخر فقد أُستُخدِم بمثابة مخزن للمدرسة، ومكان لرمي بعض النفايات.

أمتلكُ كرسيين، أستعمل أحدهما دائماً، والآخر مُعَدّ للمرأة في عرض المنضدة. لقد أغلقتُ النوافذ ببقايا اللافتات، واستخدمتُ نافذة بمثابة مكتبة للزينة، إذ أنني انقطعتُ عن قراءة الكُتب منذ عدة شهور. ومددتُ شبكة التنس الأرضي على حائط الغرفة وقلتُ: إنها رمز لعذرية المكان.

وُضِعتُ بين هذه الأشياء بلا أسف. تنتابني أحياناً حُمى الحصار، فأركن إلى سلام الحمد التطميني لأنني أفضل من كثيرين حالاً.

Twitter: @ketab_n

- (2) -

ذلـــك الشعور الفريد بأن نجمة تهوي في أعماقي. الفجر يشرف علـــى الذبـــول. منظر الحديقة. جفاف خلف الزجاج. اكتئاب يعقبه تسلق. رواح ومجيء. قارب ضائع.

هـــناك طاقة كامنة لأجل التصرف لحظة الشدّة، فلابد أن أكون أحـــياناً منسياً من نفسي، فأتذكرُ أني سحقت غاية لمجرد إني اشتهرتُ باجتراع الغصّة، والشهرة لا تتجاوز حدود معرفتي أنا.

- (3) -

.....

.. أحداث حُب قوي.. ثم غياب..

- (4) -

الليل هادئ هناك: أحجار وحيطان باردة، وظل كثيف حيث نام الناس على مواضيع كثيرة مؤجَّلَة، وحيث تواصل الأغصان نموها الحذر وسط الغبار والعدَم المخيف.. أما أنا؟!..

أنا: هذه الطاقة المُدمِّرة، آلة الفكر، الرأس الساخن المتوتر..

في داخلـــي أسئلة أولى بلا جواب، أسئلة جارحة بلا حدود. أنا؛ توتـــرٌ وحيد وسط الظلام الهادئ.. أما أنتِ.. فأين؟!. تُرى ما الذي

Twitter: @ketab_n

تفعلـــه امرأة مثلكِ في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل؟.. لقد تورَّطتِ بعلاقة مع رجل لا يعرف كيف يهدأ أبداً.

هـــذا الرجل: أنا، يهديكِ سلاماً وقُبلَة، وأنتِ الآن نائمة بتآلف جدلي مع الوسادة والشرشف الرقيق الذي يغطي أسراركِ، كنوز الأنثى المهدورة في صباح يوم عراقي، مهدورة على الرصيف بمثابة تسلية لكل رجل يمر.

أعـــرفُ أنـــكِ تنامين بطريقة تعيد القاتل إلى صوابه، تلك النومة المستسلمة: نوم طفلة في السنة الثالثة. صورة لن تذهب من رأسي أبداً. صورتكِ النائمة: لوحة شاعرية، حلم هادئ، وقد نـــزعتِ قلق النهار إلى جانب نعال البيت. وأنتِ نشطة في البيت، مهووسة بالنظافة، دقيقة وحـــادة في العمل.. تزعقين أمام مواضيع صغيرة: "تُغيّرين الحياة بجهل صاعق".

وتـــسعين مغمَّسة في طيبة مخجلة، تثيرين الضوضاء لجلب الانتباه إلـــيكِ.. هـــذه البساطة الطيبة، هذه الفتنة، هذا الجمال الطفولي، كل هـــذا.. وغـــيره.. جعلكِ امرأة بلا عمق. تهبين كل ما لديكِ - بما في ذلـــكِ جـــسدكِ المُحرَّم ذي الجمال الهائل - إلى مَن يقول لكِ بأنكِ (أُنثـــى). وفي يـــوم تعرفتُ إليكِ، واستخرجتُ كل هذه الصفات.. وأحببـــتكِ لأنكِ لا تعرفين أبداً معنى أن نحب بعضنا بلا شر. لأنكِ لا تعـــرفين أبـــداً الصلة بين الحب والقوة: الإرادة والاختيار. لقد كنتِ خاســـرة علـــى الدوام، لأنكِ طيبة على الدوام. والطيبة غباء في هذا الزمن!.

أنتِ. أنا. أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبة.

لقـــد بقـــيتُ أسأل نفسي هذا السؤال المخيف: كيف يمكن أن ترضـــى المـــرأة بأن تكون تسلية لرجل؟. كيف يمكن أن يتسلى بها،

Twitter: @ketab_n

ويقـــذف بهـــا أوساخه ثم يدير وجهه عنها بعدما يرميها في العراء؟.. وكيف ترضى المرأة بأن تكون (موضوعاً) جنسياً لرجلٍ في الشارع؟.. رجـــل يراها عارية الذراعين، عارية الصدر ويشتهيها كما يشتهي أن يشرب الشَرّبَت[1] ليطفئ عطشه. وهي (المرأة) أداة، شيء، مجرد شيء. آلـــة للاستعمال، آلة للذة. الغبية التي تعتقد بأنها خُلقَت له، لإرضائه، وقد نسيت نفسها كإنسان، ذات، كرامة، فكر، اختيار، كيان مستقل. لقد صارت - بعض النساء - مجرد وعاء يتقيأ فيه الرجل!.

أمـــا كيف نقيم علاقة بلا شر؟. أنا رجل، وأعرف كيف يفكر أشباهي، ولكنني أستثني دائماً الرجال الواعين والنساء الواعيات.

العلاقة الصحية - يا صديقتي وحبيبتي - هي اختيار. أن نختار من يحبـــنا ونحبه دون تنازل، ودون إذلال. أن نحب وكرامتنا محفوظة. أن نحـــب دون أن نَركَع.. ونعرف متى وكيف ولماذا نقول: (لا) أو (نعم) في الـــوقت المناسب. أن نحب بشرف. نهبُ أجسادنا وأسرارنا وآلامنا وأحلامنا لمن نحب.

أن تكون المرأة كيان ووعي وقوة أمام رجل واحد تختاره. أن تكون المرأة إرادة تعرف كيف تخالف شهوتها عندما تشعر أنها ذليلة ومرميّة.

لو أن امرأة تستطيع أن تمشي في الشارع دون أن تهتز. لا تستطيع المرأة أن تخرُج من عارها إلا إذا نسيت جسدها.

هل تستطيع امرأة أن تخرُج منفوشة الشَعر إلى الشارع لأنها كانت مـــشغولة - مـــثلاً - بفكرة معينة؟. هل توجد مثل هذه المرأة بعد؟.. مـــتى؟. هل تنسى - ولو للحظة - أنها امرأة؟. أقصد: هل تستطيع أن تنسى أنها خُلقَت لتسلية الرجل؟.. متى؟.

---

(1) الشربت: تعني (العصير) باللهجة العراقية.

Twitter: @ketab_n

أنـــا الرجل ذو الوعي، عندما أرى امرأة معينة قد نسيت المشط بـــسبب فكـــرة هامة شَغَلَتها.. سأركع عند قدميها. لستُ أبداً ضد المشط، ولكنني أحتقر هذه الآلة الجنسية.

الكلام عام هنا، إنه لا يعنيكِ وحدكِ، ولكنه سيضيء جانباً منكِ لأنكِ تورطتِ بـــي.. أنا الذي لا يهدأ أبداً.

فَكِّـــري - مـــثلاً - أن رجلاً ما، في يوم ما، قال لكِ: أنتِ جمـــيلة. وقـــال لكِ: أحبكِ. وقلتِ له: خذ جسدي لكَ.. فأخذكِ وتسلى بكِ وشبعَ منكِ، ثم ألقاكِ ورماكِ خارج الباب!؟. عند ذاكِ: مَـــن أنتِ؟. عند ذاكِ: ما قيمتكِ كامرأة مُنتَهَكة وضائعة ومحطَّمَة وخاسرة وساقطة؟. وما الذي ربحتيه من لذة ساعة؟. وما الذي بقي لـــكِ سوى ذكرى جسدٍ عارٍ في رأس رجل..؟. ولكن لن تكوني حـــتى ذكرى، لأن الرجلَ قد استبدلكِ بأخرى، بجسد عارٍ آخر.. وهكذا.

أما أنتِ فلن تنسين أبداً بأنكِ كنتِ عارية في يوم ما. لو كنا نملـــك وعـــياً لتعلمنا أن نحب وأن نعطي بلا خسارة. مَن ذا الذي ســـيغفر لـــنا أخطاءنا؟ مَن يسامحنا؟.. إننا مطالَبون بالاعتراف أمام أنفسنا بأننا كنا في يوم ما في غاية الغباء. لو وقفنا قليلاً - قبل النوم مـــثلاً - بدقائـــق - وحاسَـــبنا أنفسنا: تُرى ما الذي فعلناه طوال الـــنهار؟. لو أننا كنا شجعاناً في محاسبة أنفسنا لعرفنا كيف نربـــي أنفـــسنا تربية قاسية، لا نعطي أي تنازل ولا خسارة واحدة.. ننام هـــادئين بـــلا كوابيس، ننام بلا ضمير مُتَورِّم.. ونلقى أحبابنا في الـــصباح بحـــب مجَـــرَّد، نقي، وبقلبٍ مفتوح ليس فيه أدنى شعور بالغصة.

Twitter: @ketab_n

- (5) -

هدى العزيزة:

في صباح يوم ربيعي، كنتُ آنذاك في نينوى، كنتُ مبتلاً بمطر خفيف، عبر فضاء شفاف. يومها كنت أحب المطر والمشي تحته، على ضفاف النهر، في الغابات، في الشوارع الخالية. كنت أحمل حذائي وأخوض في الغدران. كان ثمة ضحك ينطلق من جوفي الساخن. أعتز كثيراً بتلك الاكتشافات الصغيرة. ولم تكوني أنت قد خُلقتِ بعد كامرأة.. ربما كنتِ طفلة تُعابث خلايا الزنابير.. أما أنا فأسأل نفسي تحت المطر أسئلة كبيرة عن الحياة ومعنى الوجود. وأصرخ في طرف الغابة: مَن أنا؟؟.. مَن أنا؟؟..

كنتُ عائداً تواً من تجربة فاشلة مع امرأة، غير أنني كنتُ مملوءاً بالنصر لأنني خرجتُ بلا خديعة.. وبهدوء انسَلَلت.

أذكرُ هذا الحلم الطفولي: لقد قررتُ في يوم ما أن أفتح باب التاريخ، وكنتُ بحاجة إلى امرأة أحكي لها عن هذه الفتوحات. امرأة تَسمعني وتساعدني.. تقاسمني هذه الفكرة، وذلك الحلم المجنون. ربما كنتُ على خطأ لأنني سريع الثقة بالمرأة، لأنني أضعفُ أمام الرِقة، لأنني أتوب أمام الجَمال. لأنها المرأة: نهر الحنان. أمي. الحضن الدافئ، الأصابع الرقيقة التي تمسح عَرَق الحُمّى.. مستودع الشكوى. لأنها المرأة: أنت وغيرك. أحبُ أن أسقط على صدرك لحظة التعب. أحب أن أُعاقبك لأنك مليئة بالحنان أكثر مما يجب. لأنكِ مستودع أسراري. نعمة السلام بعد العودة من قتال العالم.. ومتى أصبحتِ غير هذا فأنتِ أكثر شراً مني - أنا الرجل - صانع الشر والبؤس، أنا القاتل القاسي. فعندما تنتهي الثقة بيننا أتحوّل إلى وحش. أنا الرجل: أحب

Twitter: @ketab_n

نفـــسي – أنانيّ – أكثر مما تتصورين، ولذلك فلا أريدكِ أن تكوني لأحد سواي.

We are all murderers

كـــنتُ آنـــذاك تحـــت المطر، عائداً من طفولة شقيّة أبحث عمن يـــشفيني. أبحث عن حُب يتحداني، فلطالما كرهتُ المرأة الضعيفة التي ترضى بأن تكون مجرد تابع للرجل. ولطالما – هناك تحت المطر أيضاً – ناديتُ امرأة مجهولة فلم أسمع جواباً.

المرأة التي أحبها يجب أن تنسى بأنها آلة جنسية. وتتذكر أنها مثلي دائمـــاً: إنـــسانة. وأن دورها ربما أكبر من دوري في الحياة. أكيد أن دورها أكبر.

هـــدى: هـــل نفكر معاً بمعنى العالم؟.. لأنه من غير المعقول أن أكتـــشف شـــيئاً لا تعرفينه. لأنه من غير المعقول أن تكوني حبيبتي ولا تعرفيني.

لأنـــني (أنـــا العاشق السيئ الحظ) فكرتُ في مرة قريبة أن أقتل نفـــسي، لأنني هُزمتُ معكِ لآخر مرة. لأننا بدأنا نشوه بعضنا البعض، لأنـــكِ أنـــتِ بالـــذات مارستِ دور المرأة الزوجة.. هذا الدور الذي أكرهه، لأنكِ عدتِ من جديد إلى أحلام المطبخ.

ربمـــا اكتشفتُ أخيراً أنني لا أحبكِ، لأنني لو كنتُ أحبكِ حقيقة لكنتُ أكثر قسوة معكِ، لكي تنسي هذا التاريخ المزيف من العلاقات. لكـــي تكـــوني (هدى) الجميلة التي أعبدها.. هدى القوية التي تنسى جـــسدها في ســـاعات الإغراء.. هدى التي تسألني دائماً: كيف أكون أفضل؟.

لـــو كنتُ أحبكِ حقاً لعلمتكِ بالقوة ألف باء التفكير، وألف باء الـــزهد، وألـــف باء المعنى.. ولكنني أيضاً بحاجة إلى من يساعدني على

Twitter: @ketab_n

نفـــسي، بحاجة إلى مساعدتكِ بأن تكوني ضدي في لحظات الضعف، لأن الحب أقوى مني أحياناً.

ســـاعديني في أن أكره لذتي معكِ. أن أحبكِ برأسي لا بقلبـــي فحـــسب. ساعديني لكي أحررك من الوهم وأتحرر معكِ، أحررك من الكـــذب، أحررك من الابتذال والسطحيّة.. ساعديني أرجوكِ أرجوكِ أرجـــوكِ لكـــي لا تضيعين فأشعر أنني فشلت. أرجوكِ أرجوكِ: إنها الفرصة الأخيرة لنا.

يا للمرارة.. يا للمرارة. هدى استيقظي هدى.. يا للمرارة. كفاكِ نوماً. هدى الفجر يقترب.

أخـــافُ عليكِ من تلك النمور الجائعة، وقسوة الدهر، والشيخوخة المبكـــرة. غـــداً، عندما تنظرين في المرآة، لن تجدي سوى صورة مُحَطَّمَة لجَمـــال قديم. لن تجدي سوى آثار ضحكة ذابلة. وغداً أيضاً سينطفئ هذا الـــبريق الصافي في عينيكِ. غداً سيذوي هذا الجسد المتفتح كالزهرة.. فلا يبقى لكِ شيء سوى الحكمة الباردة، والنظرة الثاقبة في عمق الحياة.

أخاف عليكِ منكِ. أخافُ عليكِ مني. أخاف عليكِ من النسيان، لأنكِ لا تدرين أبداً بأن الموت أهون من أن نحس بأننا منسيين.

يا للمرارة يا هدى. متى تفهمين أنني أحبكِ؟. ومتى ستكفين يوماً عـــن هـــذا النكران؟. ومتى أراكِ حُرّة بلا أي سوء؟.. متى يا إلهي.. ســـتُقدّرين هـــذا اللـــهب الذي يمزقني؟. متى نتعلم أن نحب دون أن نَجرح.. متى.. متى..؟؟..

آه.. هدى يا قلب القلب.

.. أنتِ أعظم خيباتي.

أخـــافُ عليّ منكِ.. (وأخاف النوم.. ربما أخاف من أن تكوني مجرد حلم).

Twitter: @ketab_n

- (6) -

صباح من هذا الصيف:

أنـــتِ ومايكوفسكي معاً، تدخلان إليّ، دون أن تطرقا بابـــي. أنتِ الجسد الذي اخترق قشرة العادات. مرة سمعتُ صوت قلبكِ يرفّ كعصفور في قفص. وسمعتُ الشاعر العظيم (مايكوفسكي) يقول:

"قائماً كسيراً، سآخذ قلبـــي وأحمله يقطر بالدمع

كما يحمل الكلب إلى كوخه قدمه التي سحقها القطار.."

سمعـــته ينـــشد في الليل، منذ الربع الأول للقرن العشرين... مرة أيقظني من النوم قائلاً:

"أحياناً أُحدث نفسي،

تُرى لو وضعتُ رصاصة كنقطة الختام في حياتي؟

اليوم، كيفما اتفق.

أعزف موسيقى الوداع على مزمار عمودي الفقري

أنا قوي، قد يحتاجون إليّ

إذا ما اصدروا أمرهم: "مُتْ في الحرب".

فآخر الأسماء سيكون اسمكِ

المتخثر على الشفة التي مزقتها قنبلة..".

تُـــرى: أيـــة لوعة تصلكِ؟.. تُرى ما الذي سنتركه من ذكريات سوى خطوط مخالب احتضارنا على الحائط؟.

تُرى من منا – أأنا أم أنتِ – سيُقدّر جلالة اللحظة التي خلطتنا؟. لحظـــة كـــنا فيها جسدين لشخص واحد. كنا نغوص في بعضنا، نكتشف بعضنا بتلك الصيحة المدهشة والهمسة المدهشة كما اكتشف كولمبس أمريكا.

Twitter: @ketab_n

تُــرى كيف يمكن أن نخون هذه اللحظة؟. تُرى كيف يمكن أن نفتــرق لمجــرد تعرض أحدنا للقسوة من قبل الآخر؟.. ومَن مِن بعدنا سيقسو علينا هذه القسوة اللذيذة إذا قلنا (وداعاً)... وذهبنا.

كــنتُ دائماً أحدثكِ عن الخسارة، وربما ستفهمين هذه الكلمة الآن..

كلمــة - منشار يشق التصاقنا. هل حاولتِ أن تكوني أكثر قرباً إليّ؟.. هل تعرفينني؟.

We are all murderers

حقــاً: مــتى حدث ذلك؟. لنكن أكثر شجاعة في الكشف عن أنفسنا. تُرى هل بدأنا نملُّ بعضنا؟. تُرى هل بدأنا نخاف أن ننظر طويلاً في عيون بعضنا مخافة أن نكتشف بأننا بدأنا نكذب؟. لقد عرفتُ أعمق الأحاسيس منذ أن بدأتُ أعتزل الناس لكي أعرفهم أكثر. عرفتكِ أنتِ بحــسي الروائي الذي لا يخطئ أبداً. تميلين إلى تحطيم نفسكِ كأنكِ لا تــتحملين حباً حاراً صادقاً. كأنكِ لا تصدقين بأنكِ تستحقين الحب. كأنكِ لا تفهمين: أردتكِ أن تكوني سيدة عظيمة، ولم يكن أي طريق آخــر إلى هذا الهدف سوى أن أكون قاسياً في تعليمكِ. كنتُ أريد في كل مرة أن آخذكِ إلى العمق لكي تجدي المعنى الحقيقي للحياة، ولكنكِ تنــــزلقين في كــل مــرة نحو السطح، مختنقة ومتخبطة، وضائعة من جديد.. وتهددين بإفشاء سر الجسد - جسدكِ الكَنــز - إنكِ مُبَذِّرة للجسد. خسارة.

اسمعي؛ إنني لن أهدر عمري، بعدما شقيتُ لأتعلم كيف أتحدث بلغــة الملائكــة وأفكــر بطريقة الحكماء. لقد خسرتُ جميع أشكال الــسعادة، وحبــستُ نفسي عشرون عاماً في غرفة واحدة لكي أجد الجــواب للسؤال القديم: مَن أنا؟. لأكتشف في تلك العزلة كيف يمكن

Twitter: @ketab_n

أن أصـــنع معـــنى لحياتي. وأنتِ منذ أن التقيتكِ تتحدثين بلغة الأشياء الميـــتة. لغة الناس الذين لم يتعبوا كما تعبتُ. تقولين مثلاً: إن للكرسي أربعـــة أرجـــل. أو تقولين مثلاً: بأنكِ ذهبتِ إلى السوق بالسيارة.. وبعد؟.. لا بأس، ولكن حدثيني عن الكرسي والسيارة بطريقة مختلفة. تقولين: أنا هكذا، لا أستطيع أن أكون غير ذلك.

عجيب..!!.. كيف يمكن أن نرضى بأن نكون (هكذا) دائماً؟!. هناك كلمة خاصة بالإنسان اسمها (التطلُّع)، وهي تعني أنه بالإمكان أن نكون أفضل، خاصة عندما نجد من يساعدنا، مَن نضع يدنا في يده، مَن يـــسحبنا بقوة من وحل العاديّة، مَن يخلصنا من يومياتنا المتشابهة. ولقد فعلـــتُ معـــكِ كـــل ما يمكن أن يجعلكِ امرأة خاصة، ولقد فعلتُ ما يـــرفعكِ عـــن المستوى العادي: مجرد الأكل والنوم والسرير، وخدعة الـــراحة، وأكذوبـــة السعادة السطحية. لقد قدمتُ لكِ كل البدائل: ســـعادة اكتشاف نفسكِ، اكتشاف الحرية، وأبعدتُ عنكِ الخوف من الـــضياع والخوف من الخسارة، وأعطيتكِ وعياً جاهزاً، وعلمتكِ معنى الحـــب بـــلا مذلّـــة، وعلمتكِ كيف تتحدثين عن نفسكِ بلا خجل، وجعلـــتكِ تـــشعرين وأنتِ بين النساء بأنكِ امرأة مختلفة.. فما الذي يزعجكِ إذن؟!.

لا بـــأس؛ عـــودي إلى قطـــيع الناس، وتزوجي، وتقبلي الصفع والكلمـــة الجارحـــة، وانجبـــي الأطفال.. ثم هيئي لنفسكِ كرسياً ذا عجلات لكي تكوني جَدة عتيقة مثل كبرى شجرات الزيتون.

أما أنا، فأنتِ تعرفين أن حياتي ستظل ناقصة، لأنني سأظل بحاجة إلى أن أكـــون أفـــضل. لن أهدأ أبداً، طالما أنا حيّ.. لن أهدأ حتى أفتح باب الـــتاريخ.. ولكن لديّ سعادة أخرى هي: أن أتمتع بانتصاري الدائم، لذة الفكر العظيمة، لذة الجنون.. وفكرة اختراع الفرح الذي لا يزول.

Twitter: @ketab_n

مـــا أعظـــم أن نشعر بأننا أقوياء - أقوى من الوقت، أقوى من يومياتـــنا العاديـــة، أقوى من أن نستسلم للشيخوخة، أقوى بكثير من الـــشعور بأنـــنا نمـــوت بلا ذِكر كما تموت الحيوانات التي لا نعرف أسماءها.. ما أعظم ذلك!!.

- (7) -

ومـــن بـــين ما كتَبته (هدى) إلى (حسن) وإلى نفسها.. بعد أن انتقلت عن تلك المدرسة والقرية التي جمعتهما:

"أكـــتبُ إلـــيكَ حبيبـــي، في شدة الشوق واللهفة.. أكتب ولا أدري ماذا أكتب، وكيف أُعبر؟!.. يملأ قلبـــي اليأس والحيرة، لم أعد أحتمل، أريد أن أراكَ.. أريدكَ إلى جانبـــي..

أكـــتب إلـــيكَ وقلبـــي يفيض بالمشاعر الملتهبة التي تدب في كياني من أعلى رأسي إلى أسفل قدمي.. لا أحتمل أكثر من هذا.. أريد أن أراك. لم يعد لي سوى الذكريات التي تزيدني حزناً ويأساً.. لم يـــبق لي إلا صـــورتك الـــتي لا تنطق. لم تعد لي سوى رسائلك التي لا أملك أكثر من أن أقرأها كل يوم أكثر من مرة.. لم يعد لي شيء.

أحدثكَ كل يوم.. أسألك ولكنكَ لا ترُد على سؤالي، لا تريحني حتى ولو بسماع صوتك.. ويقولون عن الصورة:

"إذا هـــزك الـــشوق يـــوماً لتـــراني فهـــذه صورتي تُعبر عن لساني"

كـــلا.. ثم كـــلا.. لا يمكن أن تكون الصورة بديل عنكَ.. إنها تزيدني ألماً وحسرةً وعذاباً وشقاءً.

Twitter: @ketab_n

حبيبـــــي.. كيف يطاوعك قلبكَ على فراقي كل هذه المدة؟!.. كـــيف احـــتملتَ وأنـــت، كما عرفتكَ، لا تستطيع العيش بدون أن تراني؟.. كيف؟!.

.. لم يعـــد لي في حياتي ما أعتز به، حتى حياتي ذاتها لم تعد هي الأخـــرى ملك لي مادمتَ أنت لست بقربـــي بالرغم من أنك تسكن في داخلي.

أحتاجكَ كما يحتاج النبات إلى المطر، ومثلما تحتاج الطيور إلى الـــشجر.. وكما يحتاج الطفل أن يبقى إلى جوار أمه.. أحن إليكَ كمـــا يحن الغريب إلى وطنه والبعيد للقرب من أصله.. إنني أحترق مـــن شدة الشوق.. أتمزَّق.. لا أمل لي في البقاء مادمتَ أنتَ بعيد عـــني.. أريد أن أتحسسكَ، أتلمسكَ، أحتضنكَ.. أضمكَ بقوة إلى صدري..

حبيبـــــي.. لا أعـــرف ما الذي ينبغي فعله؟!.. لا أملك سوى الدموع التي لم يعد لدي بديل عنها.. ولا أملك حتى لغة للتعبير لأكتب بها خلجات نفسي..

كنتُ ضائعة ووجدتُ نفسي فيك. كنتُ يائسة فوجدتكَ الأمل الـــذي يبعث في قلبـــي الطمأنينة والاستقرار.. كنتُ محطَّمَة فوجدتكَ تعـــيد تخطـــيط حياتي.. كنتُ فارغة المشاعر والأحاسيس فجاء حبكَ لـــيجدد فيّ ما مات من هذه المشاعر بمشاعر فياضة جديدة.. وجدتُ فـــيك حلم حياتي الذي طالما تعبتُ وتخبطتُ وضعتُ وأنا أبحث عنه، فأقبلتُ على حبكَ دون أن أنظر إلى أمام. وكنتُ أعلم منذ البداية بأن علاقـــتي بـــكَ لابد وأن تفاجئني، في يوم من الأيام، بانتفاضة المجتمع، ولكنني كلما كنتُ أفكر بذلك كان تعلقي بكَ يزداد يوماً بعد آخر.. ووصـــلتُ إلى الدرجـــة التي جعلتني أتحدى العالم بأسرِه، وسواء أأبى

Twitter: @ketab_n

المجـــتمع أو رفـــض ذلـــك فإنني لا ولن أتركَكَ حتى ولو كلفني ذلك حياتي.. فما معنى حياتي، وما معنى بقائي دون (حسن)..

حبيبـــي.. أحبكَ.. أريدكَ.. أحتاجكَ.. تباً لي ولك.

هدى

1987/6/2م

* * *

وكتَبَت (هدى) إلى (حسن)، أيضاً:

".. إلى مَـــن هـــزّ كياني وجعل يدي ترتعش وتزحف نحو القلم لأكتب ما حلّ بـــي من ألم..

أكـــتب لـــكَ من صميم فؤادي لعلكَ تذكر عمري الضائع. أصـــفُ لـــكَ مشاعري وأنا أرحل، عندما جئتُ لأودعكَ لم أكن أمـــتلك شـــجاعة الكـــلام ســـاعة وداعي لك. كان لدي الكثير مـــن الكـــلام لأقوله لك، ولكن صعوبة تلك اللحظة عليّ جعلتني أســـكت ولا أنطـــق أية كلمة خوفاً من أن تسقط دموعي أمامكَ، وخـــوفاً مـــن أن أنهار في تلك اللحظة، فأزيدك ألماً وحزناً وأُحملكَ فوق طاقتك.

كنتُ حريصة جداً على أن لا تراني وأنا أبكي، لأنني – وكما عرفتكَ شديد العاطفة، مرهف الإحساس، خصوصاً مع من تحب – كـــنت أعطي من الضعف القوة لكي أخفف صعوبة تلك اللحظة.. كـــنتُ بحاجـــة إلى أن أحتـــضنك.. أُقبلك، ولكنني ارتبكت ولم يكـــن أمامـــي ســـوى أن أرحـــل سريعاً، أردتُ أن أختصر لحظة الـــوداع، وفي الـــوقت نفسه تمنيت أن تطول تلك اللحظة لتصبح ساعات طويلة.

Twitter: @ketab_n

ركبتُ السيارة وأنا أودع تلك القرية التي لطالما تألمتُ وواجهتُ فيها الصعوبات، وتعرضتُ فيها لإحباطات كانت شديدة الوقع على نفسي وأثرت تأثيراً مباشراً على تكوين شخصيتي.. بقدر هذه المآسي.. كانت عزيزة عليّ، وكان وداعي لها أصعب ما واجهتُ في حياتي لأن كل شيء فيها، ساعة الرحيل، كان يذكرني بكل ذكرى جميلة من ذكريات حبنا.. تلك الطبيعة الجميلة، تلك الأرض الوعرة التي شهدت مسيرتنا في تلك الليالي المقمرة، تلك البساتين الخضراء التي كان نسيمها يذكركَ بأنسام عطري الذي أخلفه ورائي بعد رحيلي عنك.. ذلك الوطن الذي احتضن حبنا منذ البداية إلى أن أصبح أسطورة يتحدث بها الناس.

تلك الأرض التي عايشت قصة حبنا وشهدت بأصالة تلك العِشرة. كل شيء فيها كان يُحمّلني ألماً لا أحتمله. لقد شعرتُ بغربة شديدة، خيبة أمل كبيرة، وحشة قاتلة. كنتُ أتلفتُ على امتداد الطريق إلى أن غابت عن عينيّ رؤية القرية، وكانت الدموع تنهمر من عيوني وأنا أنظر إلى ذلك البناء المقدس الذي احتوى مسيرة حبنا منذ البداية (مدرسة ثانوية الزرارية).. كنتُ أنظر لأطمئن على الوديعة التي أودعتها هناك: في ذلك البناء المرصوص بالرخام والأحجار الكريمة.. قلبي (وديعتي) الذي أودعته بين حنايا قلبك.. ذلك البناء الذي أساسه الحب والوفاء والإخلاص.. سوف يبقى قوياً صلباً شامخاً مهما طال الدهر.

خيم الحزن على قلبي في تلك اللحظة.. لم أجد وسيلة للهروب من أحزاني سوى النوم. أعترف أنني قبل رحيلي بيوم كنتُ قد أغضبتكَ، ولكنني لم أكن أقصد ذلك، قلتُ ذلك الكلام لأنني كنتُ أريدكَ لي وحدي. قد يكون في كلامي نوع من الأنانية،

Twitter: @ketab_n

ولكن من حقي أن أكون أنانية في أن لا تشاركني امرأة أخرى فيمن أحب، حتى وإن كانت تلك المشاركة في الجسد فقط، لأنني أحبكَ وأريدك لي وحدي مثلما تريدني أنا لك وحدك. كنت أريد أن أقول لـــك أي شـــيء يثيرك ويحرك الغيرة عليّ فيك، ويحرك تفكيركَ نحو اتخاذ خطوة جدية تجاهنا نحن الاثنين.. لأننا لم نعد نحتمل بُعدنا عن بعضنا، ولأنني أنا لم أعد أطيق تلك النار التي تتوهج في داخلي حتى لتصبح أكبر مني، لأنني لم أعد أمتلك أية طاقة لاحتمال بُعدك عني.. لأنكَ أنت الذي أعطيتَ معناً لحياتي، وبَدَّلتَ موازيني عندما شاءت الصدفة أن ألتقي بك لأجدك المنقذ لحياتي بعد الضياع الذي كاد أن يؤدي بها.

كـــنتُ حطامـــاً، بـــناءً متهدماً.. خربة تملؤها أنسجة العناكب وأعشاش الطيور، زقاق قديم لا يفتأ أن يزداد كل يوم ذماً وهجراناً من قـــبل الـــناس. كنتُ ضائعة ووجدتُ نفسي فيك.. حتى جعلتني قادرة علـــى تحـــدي العالم بأسره، مستمدة قوة التحدي هذه من هذا الحب العظيم الذي وهبه الله لي، وقلتُ في قرارة نفسي بأنني لن أتركَكَ مهما يحـــدث.. ولـــو كلفني ذلك حياتي، فما معنى حياتي، وما معنى بقائي بدونك؟!.

مـــشتاقة إليك.. أحتاجك كحاجتي إلى البقاء.. أحن إليك حنين الغريب لوطنه والبعيد للقرب من أهله.. أريد أن أتحسسكَ، أتلمسك، أحتـــضنك، أضم رأسي بقوة إلى صدرك لأشعر بالأمان من هذا العالم المخيف.. تباً لي ولك.. يا إلهي ارحمني..

ليلاً 1987/10/24م

* * *

Twitter: @ketab_n

وكتَبت هي أيضاً:

".. إلى حبيبـــي الغريب البعيد..

تحـــية طيبة وأشواق أكبر من كل الكلمات التي تعتريني.. أهديها لك مع فائق التقدير والاحترام..

أما بعد:

تكـــاد أيـــام البُعد أن تكتم أنفاسي وتملؤها حزناً وملامة، لأنني بقـــيت كالزرع المتروك لضمير رجل غريب اقتحم أسوار حياتي بكل بساطة وانتشلني من عالم الضياع الذي كنتُ أعيش فيه، وبعد أن كسر القـــيود وأخرجني لأرى الدنيا من خلاله، من خلال طهارته وصدقه، تـــركني في صـــحراء لابد لها أن تكون أتعس بكثير من السجن الذي كنتُ فيه قبل أن أعرفه، وببساطة قادني حرماني وجنوني إلى أن أصدقه، وكنتُ أصدق أحلى الكلمات نابعة من قلب أصيل أو بالأحرى رجل أصيل.

.. فأين أنت يا تُرى؟.. في زاوية من زوايا النسيان تعيش؟.. هل تذكـــرني؟.. هـــل تذكر تلك الأيام الجميلة التي عشناها معاً؟. كانت أحـــلام جميلة، وكنتُ أعلم بأنني أطرق أبواب الخيال وسأسقط يوماً علـــى حقيقة مُرّة ومُر العذاب. ومهما استغرقتُ بنومي سوف لا أرى عينـــيكَ ثانية ولن تحملني صدفة الأحلام لدخول جنة كاذبة، إيماناً مني بكلمـــةمنطقـــتها شفتاك يوماً من الأيام، حيث اعتقدتها من رجل عند كلمـــته وإن كان غريباً وأديباً، وفي بداية المشوار أصبحت الأمل.. بل وكل شيء في حياتي.. تُرى أين مني وعودكَ وأين أنت من العهود؟.

.. أيـــن أنتَ؟.. انقذني من ظنوني وعذاباتي وجراحاتي وأفكاري اللعيـــنة.. انقذني من بين شكّي ويقيني وأرق الليالي، فقد رماني الدهر ونلتُ الذل من الدهر.. أكُتِبَ عليّ أن أعيش دائماً وحيدة..!.. حياتي

Twitter: @ketab_n

لم أرَ فـــيها سوى الآلام والضياع، ولأني لم أذق طعماً من الأفراح في عمري إلا معك.

أكـــتبُ لـــك، وبكل صراحة، عسى أن تعلم ما أعانيه وترأف بحـــالي.. أرجوك، ولك أوجه ندائي، ألا ترى أن الأشياء غدت مبهمة ولقاءاتـــنا أصبحت شبه مستحيلة؟.. ألا تشعر بأن أحلامنا تبحث عن مقـــبرة تُـــدفَن فـــيها؟.. ألا ترى بأن حلمنا قد انتهى؟.. فكيف هذا الـــبعاد!.. لمـــاذا؟!.. ولمـــاذا.. ولماذا.. نحن بهذا الحال؟.. من علمكَ القساوة؟.. من قادكَ إلى هذا الطريق؟.. هل تغيّرت؟.. أم ماذا أصابكَ يا تُرى؟!.. ليتني أعلم فأستريح..

خـــذ انظر ما في القلب من عذاب وألم وجروح كانت بالأمس حب وهي اليوم أورام وقروح.. أي قلب هذا قلبـــي.. رغم بعدكَ فهو مشتاق.. رغم ما مات فيه من آمال وأحلام وطموح..!.

أتذكُـــر الحـــب؟.. أتذكُـــر الحنين؟.. أتذكُر همساتنا؟.. أتذكُر ضحكاتنا؟.. أتذكُر لقاءاتنا؟.. أتذكُر مشاكلنا الجميلة؟.. كنتَ تقول: أنـــتِ روحـــي وكـــل شيء في حياتي. أنتِ نبعي الصافي ونقاوة ماء الفرات.. آه.. من تلك الأيام.. قد حلّت فيها ساعات الضياع، فتعال إني مـــشتاقة إليك لتضمني في عينيك أو في قلبك أو بين شفتيك.. أو احرقني بالنار ولا تدعني عبثاً أكتب فيك.. فقد أصبحتُ مجنونة بحبك.

.. أحبكَ يا قدري، ولك مني حريتي أمنحها.. قَيّدني.. اسكب ما اســـتطعت من مياهك الساخنة في شراييني.. ابعد واهجر.. اسكب ما شـــئت مـــن زجاجك المنصهر على بشرتي الصابرة.. شوّه كل معنى للحـــياة واقطع كل وردة أنبتَها الحب في مروجي الرحبة.. عذبني من العـــذاب مـــا نالته يدك ودعني أزحف.. اذبح واسفك دمي ولكن لا تنتظر مني أن أنساك.. فأنتَ دنياي، ومن ليس له الدنيا فله الموت.

Twitter: @ketab_n

يعجـــز اللسان أن يقول ما في القلب لأنني أملك شيئاً أعظم من ذلـــك.. أعظم من كل الأشياء.. أملك عظمة الحب.. وآه.. لو يعرف العالم ما أُلاقي.. لانتفضت لثأري أُمماً.

هدى

1987/12/18م

- (8) -

رسالة إليها:

الملهِمـــة، الجميلة، المضمونة، النادرة، الكلية في الحس والطفولة، الخارقـــة، المرأة الدائمة في الوفاء والتضحية. الحبيبة في البارحة، الحبيبة الـــيوم، الحبيـــبة غـــداً. هدى. يجعلني الشوق القاهر، الشوق الأبدي كالعـــذاب الأبدي، كالحاجة الدائمة إلى الراحة، أتصرف أحياناً كأنني لستُ أنا، فأظلمكِ وأظلمني.

غـــير أن المـــبدأ هنا. القلب لكِ وحدكِ. أنا لكِ. كل شيء فيّ تملكيـــنه كـــأميرة مـــتوّجة، كل شيء حتى أحلامي السرية وقذاراتي كإنـــسان.. أحس دائماً أن لدي كلاماً كثيراً لا ينتهي، أريد أن أقوله، غـــير أنني أشعر دائماً أن الوقت لم يحن بعد، وأن الوضع غير مناسب.. وأحياناً أنسى مَن أنا لمجرد أن تقع عينيّ عليكِ، فأنسَاني وأتذكركِ، أنتِ التي تذكرينني دائماً بالموقف، بالقوة، بالخير، بالبساطة، بالصبر في أقصى حـــدوده، تُذكـــرينني بأهم شيء: الصدق، حين أفقد ثقتي نهائياً بأولاد وبنات حواء.

هـــنالك بعـــض الملاحظـــات البـــسيطة الـــتي لاحظـــتها في علاقتنا:

Twitter: @ketab_n

ملاحظة (1):

أنكِ غيورة بشكل كبير وغير منطقي أحياناً، فلماذا؟!. أتساءل عن مدى ثقتكِ بـــي. أعرفُ أنكِ تحبينني بجنون، ولكن أريدكِ أن تعـــرفي أن لا أحـــد يستطيع أن يأخذني منكِ. ولا أستطيع أن أعطي نفسي لواحدة، ولا حتى جزء صغير من نفسي.. لأنني لا أستطيع أن أرى امرأة غيركِ.. فاطمئني وثقي بـــي وغاري عليّ ما تشائين.

ملاحظة (2):

تجبرني الظروف أحياناً أن أُقصّر تجاهكِ، فلا أتصل ولا أستطيع أن أراكِ، فتـــبدأ الـــشكوك تساور نفسكِ وتقولين: هل تغيّر حسن؟. وأنا أقول: ما الذي يُغيّرني. تأكدي أنني أريد أن أراكِ في كـــل دقـــيقة، بـــل إنني مستعد لتدمير نفسي أحياناً مقابل لمـــسة مـــنكِ أو كلمـــة أو ابتسامة أو قُبلة. لا أحس بالأمان إلا معـــكِ. أعاهـــدكِ عهد رجل مكافح. أُقسمُ لكِ بالكتابة. أُقـــسم بـــكِ، بـــأنني إذا تغيّرت في يوم ما فإنني أتغيّر لأجلكِ ونحـــوكِ وإلـــيكِ، فاطمئني. إنها كلمة فاصلة، وعهد فاصل.. وقَسَمٌ نهائي.

ملاحظة (3):

أراكِ أحـــياناً قليلة الصبر، وأعرف أن ما بكِ من الحب يجعلكِ أقـــل صـــبراً.. وأنـــا أكون أحياناً قليل الصبر بسبب ما أحمل مـــن حـــب لـــكِ. أطلبُ أن تفكري ببعض التضحية في لحظة الـــضيق. قلـــيل مني وقليل منكِ، نُصَبّرُ بعضنا، نواسي بعضنا، نُـــشجع بعضنا، نُقوّي بعضنا. هل لاحظتِ أننا صرنا نشتكي أكثر مما نحب؟!.

Twitter: @ketab_n

هـــدى حبيبتي: أرجوكِ أن تساعديني وتساعدين نفسكِ، وأن تـــتعودين على هذا الوضع، وأن تتحملي لأجلي وأن تصبري وأن تدفعـــيني إلى العمل وإلى التحمل وإلى الشجاعة.. فإنني أستمد كل قـــوتي مـــنكِ ومن حبكِ العظيم. وتذكري دائماً أنني بحاجة إليكِ، بحاجة إلى كلمتكِ، إلى موقفكِ المُشجع حتى عندما أكون بعيداً عنكِ بالمكان.

أيـــتها المجـــنونة التي جعَلَتني ملكاً على المجانين، يا مصدر إبداعي وقلقي، ومقياس رجولتي وأملي. أحلامي كلها فيكِ ولكِ. أيتها اللعينة الـــتي تجعلني أسقط باكياً على صدرها، التي تعيدني إلى طفولتي دائماً. أيـــتها الـــتي قَدَّمَت إليّ حقيقة الكون وحقيقة نفسي على طبق أنوثتها الهائجـــة.. لا أجـــد كلمة تصِف هذا الحب، ربما كلمة للشاعر (سان جون بيرس):

"إن حُبـــي قوياً كحمار"

حقاً: كيف أستطيع أن لا أحبكِ!؟ لأنني لا أستطيع أن أصبح بلا معنى، فأنتِ معناي، وبدونكِ أصير مجرد حيوان.

أقول لكِ سراً: لقد صارت علاقتنا – أنا وأنتِ طبعاً – بالنسبة لي أكثـــر من علاقة حب.. إنها موقف مبدأي وفكري، وأنتِ تعرفين ماذا يعني لديّ الموقف الفكري.

ســـأكتبُ لأجلكِ، سأفكر لأجلكِ، أعيش لأجلكِ.. وأعدكِ أن لا أتـــراجع عـــن هـــذا حتى أحقق ما نريده أنا وأنتِ أو أهلكِ دونه.

فإذا كان كل شيء ضدنا، وكل شيء صعب، وكل شيء يبدو مستحيلاً من النظرة الأولى العادية، وكل شيء في علاقتنا يبدو مغلَقاً ومُعَقَّـــدَاً، فيجب أن لا تفقدي الثقة بـــي نهائياً، وتعرفي دائماً أن

Twitter: @ketab_n

المستقبل لي، ولابد أن يأتي يوم تكون لي فيه كلمة فاصلة. وإنكِ ستكونين أكبر في نفسي مكانةً وحباً. وتأكدي أنني لن أخذلكِ أبداً..

فكّري: كيف يمكن أن نكون سعداء دون أن نكون لبعضنا البعض ولو في آخر أيام حياتنا.

قررتُ أن لا أضعف بعد اليوم ولا أشتكي، وسأقاتل قتالاً مريراً وبكل الوسائل. أعدكِ: لن أتعَب أبداً. وأنتِ لي. فلنفكر بعقولنا، ولنتصرف بعقلانية أيضاً.

أُحبكِ.. أُحبكِ يا مجنونة.. قُبلاتي.

حسن مطلك

سأتصل بكِ ونلتقي في الموصل قريباً

* * *

هدى العزيزة:

لقد علّمني ذلك الفيلسوف الشجاع الذي طالما حدثتكِ عنه (نيتشة)، قال: "إذا رأيتم إنساناً يترنح فادفعوه إلى الهاوية". لأنه كان يكره الضعفاء. وقال بما معناه: نحن الذين نحب الحياة: القيم والأخلاق والحب والفنون والأفكار وكل شيء، فإننا نستطيع أن نبدّل ما صنعناه.. نحن الذين أعطينا الذهب قيمته، ونستطيع أن ننزع منه هذه القيمة. ما قيمة هذا المعدن الغبي اللماع ذو البريق الكاذب، وما نفعه لحياتنا؟.

لقد قال لي هذا الفيلسوف: "كُن رجلاً ولا تتبع خطواتي".

هدى: أحبكِ جداً، ولذلك أخاف سوء الطالع. أُحبكِ، لذلك أقسو.. أريدكِ امرأة صالحة. أحبكِ بجنون.. متى تفهمين هذا؟.. متى

Twitter: @ketab_n

تقـــومين بالخطوة القادمة نحوي؟.. متى نكون حبيبين وصديقين؟.. متى أجـــدكِ؟.. آه.. رائحـــتكِ اللذيذة، همسكِ الذي يعذبني.. كل شيء فيكِ.

حـــسناً: ربما سأُخفي هذه الأوجاع كلها لأنني وحيد.. وأعرف أنـــني ســـأظل وحـــيداً.. وسأظل أحبكِ حتى عندما تقولين (وداعاً) وتذهبين.

Twitter: @ketab_n

مُلحَق

- أ -

بتاريخ 1987/6/23م كتب حسن مطلك رسالة طويلة إلى صديقه إبراهيم محمد الإمحمود، والذي هو من أبناء قريته، وفي هذه الرسالة غضب شديد وبوح تفصيلي يتعلق بقصة الحب هذه وما لاقاه حسن مطلك بسببها من مضايقات وضغوط عائلية واجتماعية، وعن جانب من طبيعة علاقته بزوجته وتأثيرات حبه لهدى على هذه العلاقة وغير ذلك.. ثم عثرنا في صفحات مستقلة على مقاطع معينة منتقاة من هذه الرسالة حاول فيها حسن مطلك استثمارها لكتابة نص قصة قصيرة، كما هي عادته في استثمار يومياته وتجاربه الحياتية في نصوصه الأدبية، ولكنَ يبدو بأنه لم يكملها بالشكل الذي أراد، أو أنه لم يقتنع بها.. لذا نجده مثلاً قد عنونها بـ (قصة عادية).

نُلحقها هنا لأنها تتعلق بالموضوع نفسه، فيما نرى أن نضم نص رسالته كاملة إلى الكتاب الذي سنجمع فيه ما سنتمكن من العثور عليه من مجمل رسائله.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصة عادية

.. إلى سيدة رحلة التجربة العجيبة.

جلستُ وحيداً في بعض تلك الأيام التي مضت بعد آخر لقاء، وكان قد أصابني انكسار كبير. وقلت سأكتبُ إليها كلاماً يصفني.. يصفنا معاً. ربما استطعتُ أن أحدد هذا الانكسار، وكجزء من الوفاء والوعد بالوفاء.. الوعد مع نفسي أولاً. لأنني وقفتُ أمام صورتي باحتدام لكي لا يفوتني أي جزء تفصيلي استطعمته كلذة ومضى.

كان يلوح لي الأمر أحياناً كشيء أشبه بلعبة، نلعبها ونتعب. اسمحي لي أن أكمل الكلام، بلا زعل طبعاً، فمن حقي أن أشك أحياناً بوفائك لي، لأنك تأتين دائماً، بطريقة خالية من المعاناة. طريقة مليئة بالحاجة إلى شبع الجسد.. بطرافة بعض الإعلانات. تتركين ظلاً وعطراً وصدى ضحكة لا يمكن الوثوق بها على أنها وعد. ضحك عن ضحك يَفرُق. ولأنني، رغم استجاباتي السريعة للأمور الطريفة، فإنني أتمتع بجديّة كبيرة، وحساسية تسبب لي العطب.. فأشعر بأنني مُفرَغ من المعنى، ذلك لاعتيادي على تقبل وخز الخبرات المؤلمة على امتداد حياتي السرية.

أُصاب بالفزع عندما أقول إنها لعبة. أشعر بخسارة تفوق اللذة. أشعر أنني لم أكن جاداً في حياتي كجديتي معك. أُصاب بالخوف لأن كل تفاصيل علاقتنا تبشر بكارثة الوداع.. وإنها كلمة مؤلمة تقدم لي الموت في طبق. مشكلة العدم المخيف، مقابل ازدحام الذاكرة. إن كل وداع بيننا يذكرني ببدء الشيخوخة. إننا لا نستطيع أن نجد لأنفسنا أحبة وأصدقاء وأشقاء بالروح، مخلصين، بالسهولة نفسها التي نجد مَن

Twitter: @ketab_n

يجرحنا ويخدعنا. ونحن في بحث دائم طوال حياتنا القصيرة عمن يلامس قلبنا قلبه، عمن يقول (أحب) ويعني ما يقول، وإننا إذ نعثر بين حين وآخر على أشباهنا، لا نعد نحتمل وفاءهم لنا، لأننا محكُومون دائماً بتجربة خوف من الالتزام، لأننا نميل أكثر الأحيان إلى إنكار وجودنا الأصيل. نميل إلى الخسران مخافة أن نخسر. نذلّ، ونُجرح، ونتألم، ونحرض بعضنا على الخيانة، ونراوغ، ونكذب.. كل ذلك مخافة الالتزام، لأننا لا نعرف بالضبط قيمة أنفسنا، لا نثق بأنفسنا، ولا نثق بقدرتنا على الوفاء.

أجلس معكِ الآن لأحدثكِ حديثاً لم تسمعيه مني من قبل، لأنكِ لم تعطيني فرصة جادة لأعطيكِ رأياً جاداً، ولأنكِ لم تتعرفين إليّ بعد. سأقول ما اشعر به وما شعرت به. أقول الآن. لقد صنعتُ لنفسي مبادئ قاسية عبر تجارب مُرّة من التطهير، تجارب العثرة التي لا يمكن إعلانها لأحد لأنها شبيهة بالعُري. كنتُ أحبس نفسي وأتأمل، وأفكر. وعلى مدى علاقتي مع الآخرين، لم أمارس ولو لمرة واحدة لعبة التسلية بالعواطف، ولا الخدعة ولا الكذب ولا تمشية الوقت لأجل السلوى، ولا حتى الوعد بلا وفاء.

أنزف في الألم، وأنزف في الحب، وأنزف في الكتابة. لم أتعود أبداً على قبول لحظة ليست لي، لم أتعرف على البَطَر. ولم أشكُ يوماً من فائض الوقت (مشكلة جميع الناس) لأنني أشكو دائماً من قلة الوقت. فكل لحظة أعيشها، كل دقة قلب، حياة كاملة تعنيني. لم أشكُ من ضيق ولا ضعف ولا عجز، لأنني أعتبر نفسي فوق هذه الأشياء..

في مبدأي الخاص، يجب أن تكون العلاقة محكومة بالإخلاص والحب المجرد عن الضرورة. وفي مبدأي: يجب تجنب لعبة التدمير وحذف الآخر، ولعبة الإذلال.

Twitter: @ketab_n

إن أكثر الناس يستمتعون بالحديث عن علاقاتهم أكثر مما يستمتعون بعلاقاتهم ذاتها. إن أكثرنا يجيد الكلام، ولذلك نسمع أحياناً الكلام نفسه من أشخاص مختلفين.. فهل نستطيع أن نفعل بما نقول؟.. هذه هي المشكلة.

قد تسمعين مني كلاماً مشابهاً قاله رجل آخر قبلي، ولكن إذا كنا لا نستطيع أن نميز، لا نستطيع أن نُنقي الكلام من شوائبه، لا نستطيع أن نفرق بين كلمة وكلمة، بين رجل ورجل، بين موقف وموقف، عند ذاك لابد أن نسأل أنفسنا بغضب: ما الذي أصابنا يا تُرى؟.

كم هو رائع أن نكون حقيقيون ولو لمرة واحدة، أن نربح أنفسنا حتى لو خسرنا العالم!. كم هو جميل أن نتصرف كما لو أننا نعطي أرواحنا كهدايا للآخر المخلص، وأن نتخلص من أورام الضمير، نتحرر من الشر!. كم هو عظيم أن نخلع أنانيتنا كما نخلع قمصاننا!.. أو أن نعيش (بأنانية) اعتزاز لا تسلب (الآخر) صاحبنا، ولا ترميه في الحرج!.

.. إنها دعوة لكِ، أيتها التي أحبها، دعوة لاستعمال الوعي، دعوة للشعور المؤنَس بعظمة الحرية الخاصة.. إنني أدعوكِ إلى التفكير بنوع العلاقة التي تربطنا، أنا وأنت. اسألي نفسكِ وأجيبي. وحبذا لو تكون الإجابة بصوت مرتفع لكَي أسمعها كطرف مؤسس، يحق لي.. أليس كذلك؟.

لا أريد أن أستهلك كلمة (حب) بيننا، وأتمنى أن ترفضي هذا الاستهلاك. إنها كلمة وعد، وكلمة شرف، لم أقلها إلا وكنتُ أعنيها. إنها أكثر من التزام، أكثر من ارتباط بين رجل وامرأة. كلمة شاملة تنوب عن التفاصيل، تنوب عن الشوق والاشتهاء والجنس. تمثل القدرة في تأكيد الذات، تمثل نجاح النفس في عبور أزمة الإهمال، وعبور الخوف المتوقع، وهي الخوف على الحرية من الهدر، وهي عبور الخوف

Twitter: @ketab_n

مـــن أن نكـــون منسيين، لأنها وصول إلى إنسانيتنا المتفردة وتأكيدها. وهـــي هذه الكلمة السحرية كالكهرباء، تقتلنا إذا أسأنا التصرف بها. وهـــي كلمـــة الرجاء والأمل والبشرى بالسعادة. إننا بحاجة إليها لأننا بحاجة إلى مزيد من الأمان.. فانظري حولك: كيف يمكن احتمال العالم بلا حب؟!.

منذ أن عرفتكِ، وصرت مشغولاً بكِ، سألت نفسي أسئلة كثيرة، وكنت أؤجل المواجهة دائماً مخافة أن لا تفهميني.

كنتِ محكومة بركام العلاقات الزائفة (الماضية). وجدتكِ مشوَّهة ومقـــتولة وضائعة. وأول خطوة خطوتها إليكِ هي تطهيرك من عذاب التجربة الماضية وجرح الضمير. وأعرف يقيناً، أنكِ لم تتخلصي أبداً من هذا الركام، غير أنكِ نسيتِ مؤقتاً.

إن المسألة أكبر من شرف الجسد، لأن تجربة الجسد زائلة في لحظة الانـــتهاء مـــنها. فكـــيف يمكن إذاً مسح الجروح ونسيانها؟.. جروح الـــنفس، وما خلَّفته من ضعف الثقة، وعدم الإيمان بالكرامة الشخصية والموقف الإنساني. إن كل تجربة فاشلة تؤكد لنا أننا قليلو الوعي، وأننا لا نـــستطيع فهـــم أنفسنا، وأننا غير حقيقيين.. وأننا لا نملك استعداداً عالـــياً للفـــشل. وأن كل تجربة فاشلة تطعن إنسانيتنا طعنة لا شفاء لها أبـــداً. لـــذلك فإننا نلجأ أحياناً، وربما دائماً إلى التصرف بطريقة الثأر لأنفسنا، الثأر لكرامتنا المهدورة مع الآخر الفاشل. نتصرف في أية تجربة جديدة وكأنها التجربة الماضية نفسها، وكأن الشخص الذي فشلنا معه لم يتغير، فيقول الرجل الفاشل: إن كل النساء متشابهات. وتقول المرأة الفاشلة: إن كل الرجال متشابهون. وبسوء نية تامة، ننقل فشلنا القديم فنفشل مرة أخرى. طعنة تضاف إلى الروح المُمَزَّقة. إننا لا نستطيع أن نخلص لأحد بهذه الكيفية، وإننا قد نموت بتجدد الحياة.

Twitter: @ketab_n

أحاول أن أضيء خبايا نفسكِ المُتعَبة، لأنني أؤمن بخيركِ أكثر مما أؤمن بشركِ. لأنكِ قادرة على الفهم - أنا أعرف ذلكِ - لأنكِ تستحقين هذه الإضاءة، لأنكِ أكبر مما تعتقدين، غير أنكِ محكومة بعدم الفهم أحياناً.

أريد أن أقول كلمتي فيكِ وأستريح.

لقد شعرتُ أحياناً، عندما كنت تذهبين، شعرتُ بخسارة كبيرة. وخفتُ كثيراً من أن لا أكون صادقاً معكِ، خفتُ أن تُنسيني لذة اللقاء بأنني أخدعكِ. لقد كان هذا الشعور بعدم الصدق يسبب لي الدمار. ولكن، أقول لكِ بثقة كاملة: أنني لو اكتشفتُ في يوم من الأيام بأنني كنت اكذب، ولو اكتشفتُ بأنني مخدوع من قبل عواطفي، لأخبرتكِ بما اشعر فوراً لكي لا أمضي أكثر في المزيد من الكذب.

أعيد إليكِ هذه الفكرة: لو اكتشفتُ أنكِ تكذبين، مرة، لما استطعتُ أن أحتملكِ. وأتمنى أن لا يكون هذا الإحساس حقيقياً. أتمنى أن تحاسبي نفسكِ كما أحاسب نفسي.

أكرر: إننا لا نستطيع أن نجد من يفهمنا، ومن يخلص لنا بسهولة.. ولا نستطيع أن نجد من يحبنا بلا إذلال أو تسلية.. فاحذَري هذه الفاجعة.. لأنكِ حبيبتي، ولأنني حريص على التفاهم، والوصول إلى التفاصيل.

ملاحظة: إذا نسيتكِ ساعة واحدة، فتأكدي أنني قد خنتكِ.

والآن، أتوقف قليلاً لأسأل نفسي وأجيبها، واعتبر أن الإجابة تخصني أنا.

لماذا أحبكِ، أنتِ بالذات؟.. لماذا..؟.

أحاولُ أن أجيب، حسب تصوري.

Twitter: @ketab_n

إن العاطفـــة شعور كبير، يتجاوز أحياناً قوة الفكر، ولذلك فإن العاطفـــة تظلل العقل. لو أجبتكِ بـــ: لا أدري. لما كان هذا الجواب شـــافياً. أحاول أن أتجرد بسؤال أقل حِدة وأقل تأثيراً على القلب: لماذا هذه المرأة بالذات؟.

إنـــني أدّعـــي بأن لديّ قدرات خاصة وفهم خاص، وبنيت هذا الادعـــاء على استنتاجات كثيرة، أولها، باعتباري أديباً مبدعاً، وثانيها، أنـــني أتصرف وأفهم بشكل مختلف عن 99% من الرجال. كما أدّعي بـــأنني أمـــتلك ثقافة ووعياً، وأقول: بما أنني أفترض بأنني مختلف عن الآخرين فإن اختياراتي مختلفة، ولابد أن تكوني أنتِ مختلفة عن النساء.. وإلا فكـــيف اختـــرتكِ ورضـــيتُ أن أقاسمـــكِ قلبـــي؟.. هذا أحد الأسباب. سؤال يجر إلى سؤال.

هل صحيح أنكِ مختلفة؟.

الجـــواب: نعم أنتِ مختلفة. ولذلك فإن الجميع يقولون أنكِ (غير مؤَدَّبَة)، بالتحديد، يقولون: إنها ساقطة. أنا لم أنظر إليكِ بهذه الطريقة (هذا تأكيد على أنني مختلف).

لقد حلمتُ طوال حياتي بامرأة مطابقة لتصوراتي وأفكاري: امرأة ذات حساسية عالية، ذكاء كافٍ لتجاوز الأزمة. امرأة غزيرة العاطفة، مـــتجاوزة للكثير من حالات الاستلاب والضعف التي نراها عند أغلب النساء، جميلة دائماً، أقول: دائماً، لأن أجمل النساء يتحولن إلى تماسيح فجـــأة في لحظات الشدة والكشف. امرأة تعرفني، تعرف أنني صاحب خطـــوة متفردة بين آلاف الخطوات (امرأة كبريت) كما وصف أحد الأصدقاء قائلاً:

- إنكَ بحاجة إلى امرأة كبريت.

Twitter: @ketab_n

- ب -

كيف هدأت تلك الروح العنيدة!!.. كيف؟!!

هـــذه مقاطع من رسالة جوابية بعثتها (هدى) إلى محسن مطلك الرملـــي، وذلـــك بعـــد مرور عام ونصف، تقريباً، على مقتَل حسن مطلك، وبعد أن بدأت تفيق من صدمة موته العنيف والمفاجئ، وفقدانها الأخير له.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الصداقة والأخوة..

.. إلى ريحة الأحباب، الأخ محسن المحترم:

بعد التحية:

لقـــد وصلتني رسالتك.. وأنا شاكرة لكَ تعاطفك معي في ما أصـــابني مـــن فجـــيعة: أقصد موت أغلى الناس وأعز الأحباب.. حبيبـــي (أبو مروة) تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته إن شاء الله.

عزيزي محسن:

لا تتـــصور بأنني قد نسيت (حسن) ولو للحظة من اللحظات.. كـــيف لي أن أنـــسى نفسي؟!.. وكيف لي أن أنسى الصفحة المشرقة البيضاء في حياتي؟.. كيف لي أن أنسى عنواني؟..

أقول لك يا أخ محسن: إن حسن يمثل لي كل شيء.. كل شيء بالنـــسبة لي، فهو الرجُل صاحب الكلمة وهو الأديب وهو الحبيب وهـــو القـــريب والبعيد وهو الأمل والمستقبل.. هو حبيبـــي أولاً

Twitter: @ketab_n

وأخـــيراً.. وقـــبل كل شيء وإلى آخر لحظة في حياتي.. لن أنساه مادمتُ حيّة.

صـــحيح أنـــه قد قُتلَ غدراً وأنا على ثقة ويقين من ذلك.. لأنه رجـــل صـــاحب مبدأ وصاحب كلمة، وأنا أُحيي فيه تلك الشجاعة وذلـــك الـــصمود. إن حسن لم يُمت.. إنه حيّ يُرزق.. وإلى حد هذه اللحظة، التي أكتب لك فيها، فإن إحساسي يقول: بأنه لم يمت.. لأن روحـــه تحوم حولي وكلماته ترن في أذنيّ وصورته لا تبارح مخيلتي، فإن كـــان جسده قد مات فإن روحه خالدة لا تموت، وتبقى ذكراه لحن حياتي الخالد أبد الدهر.

لا تتـــصور بأنني في يوم من الأيام لم أكن أسأل عن حسن وعن أخباره.. لقد كنت أسأل عنه دائماً ومن بعيد لأطمئن عليه وأعرف إلى أيـــن وصـــل في مـــشوار حياته وخصوصاً بعدما انتقلتُ أنا من قرية (الزرارية)، فعند انقطاعه عني لمدة سنة كاملة حاولت، وبكل طريقة أن أتصل به، إلى درجة أنني ضربتُ الدوام عرض الحائط وذهبت إلى القرية لزيارته، ولكنني للأسف لم أجده، وبعد أن علم بقدومي إلى القرية من قـــبل المُدَرس الذي كان يسكن معه، جاء لزيارتي إلى الجامعة، والتقينا بعـــد فراق دام أكثر من سنة، وكان بيننا عتاب شديد ونقاش استغرق ثـــلاث ســـاعات، وحدثني عن همومه وحدثته عن روايته (دابادا) التي صدرت إلى الأسواق.

لقد واصلتُ متابعة أخباره من بعيد ومن قريب وعن طريق زملاء معي وأستاذ في الكلية كان صديقاً له أيام دراسته، فكنا دائماً نتواصل في الحـــديث معاً – أنا والأستاذ – عن تطورات القضية إلى أن سمعتُ خـــبر الفجيعة المؤلمة، حيث أن الأستاذ طلب مني أن أذهب إلى غرفته بعد المحاضرة ليتحدث معي بخصوص موضوع معين، فعلمت منه أن قد

Twitter: @ketab_n

تم الإعدام وأن أهلكَ في طريقهم لاستلام الجثة.. ويا لهول تلك اللحظة علـــى قلبـــــي.. ويـــا لمأساتي.. ويا للخسارة التي خسرناها والتي لا تعوضها كنوز الدنيا...

وبقيتُ أسأل عن أخبار (حبيبـــي حسن) لأنني لم أكن ولحد اللحظـــة أصـــدق بأن (حسن مطلك يمكن أن يموت!) وحتى بعدما تأكدتُ من ذلك فإنني لن أصدق موته لأن من كان مثل (حسن) لا يمكـــن أن يمـــوت... في ذلك اليوم لم أكن متمالكة لنفسي، حيث عـــدتُ إلى البيت مذهولة ولم يكن لي إلا أن أجهش بالبكاء المُر.. وقـــرأت مـــا كتبه لي وأنا أبكي، وبقيت طوال تلك الأيام حبيسة غرفتي وحبيسة الحزن والذكريات السعيدة.. وكانت شقيقتي معي في الغرفة، وعلى أثر قراءتها لرسائل حسن ومذكراتي عنه أخذت تبكي هي أيضاً..

عزيزي محسن

أتوق شوقاً وتحرقاً لرؤياك لأن عندي لك الشيء الكثير مما تريد معرفته عن (الحبيب) بحكم الرابطة الروحية التي تربطني به، وكذلك لأن فيك من حسن الشيء الكثير، ولأنني عندما أراك سوف أتحدث معـــك عمـــا لم أستطع أن أتحدث به مع أحد، لأنه لم يعد لي من يفهمـــني كمـــا كـــان يفعل هو ويسمعني.. حتى خطيبـــي لم يعد يفهمـــني ولا يعرف ما أريد وأصبحتُ دائماً أُذكره بأنه عاجز عن فهمي خلافاً لحبيبـــي وأنا فعلاً أفتخر وأعتز بعلاقتي مع حسن حتى ولـــو كان ذلك على حساب علاقتي بخطيبـــي، لأن من يفقد (أبو مروة) كأنما فقد نفسه، وفقد وجوده، ولا يهمه بعد ذلك أن يفقد أي شـــيء، لأن لـــيس هـــناك أي شيء لن يعوضه عن مثل هذه الخسارة.

Twitter: @ketab_n

كان حبيبـــي يقول لي دائماً، وقالها للكثير من الناس الذين كانوا يحرضـــونه ضـــدي: "إن هـــدى امرأة غير عادية وتختلف عن النساء العاديـــات في كـــل شـــيء". كـــان يقول لي: أنتِ المرأة الخارقة التي استطاعت أن تخترق أسوار قلبـــي وتقلب موازين حياتي. كان يناديني بـــــ: حبيبتي الجميلة. وفي بعض اللحظات كان يقول: إنه يحس بأنني ابنته مروة لأنني جميلة ولأن مروة جميلة أيضاً. لقد كان يحبها كثيراً وأنا على حبه لها أحببتها أيضاً. وتمنيت أن أراها ولكن - للأسف - لم تشأ الصدفة أن يتحقق لي ذلك.

محسن

إنـــني مـــشتاقة إلى حـــسن.. مشتاقة جداً.. إنني في لهفة لرؤياه، وبحاجة إلى أن استمع إليه ويستمع إليّ، بحاجة إلى نصائحه، بحاجة إلى أن يأخـــذ بيدي.. بحاجة إلى أن يخلصني من حالة الضياع التي أنا فيها، كمـــا فعـــل ذلـــك عندما التقيته أول مرة وأنا في حالة ضياع ويأس كامل...

.. كـــيف السبيل إلى ذلك وهو الساكن تحت التراب!؟.. كيف هـــدأت تلـــك الروح العنيدة!!.. كيف؟!! وقد كان يقول لي ويردد دائمـــاً: "أنـــا الـــذي لا يهدأ أبداً".. وها هو بهذا الهدوء والسكون الأبدي..!!؟..

محسن

مهمـــا أكتب فلن أستطيع أن أفي ولو بجزء قليل عن مدى الأثر الـــذي أحدثـــه (حسن) في حياتي، ولن أستطيع أن أفي من ذلك ولو مقدار نقطة في بحر.

إن الحـــديث يطول وقد يملأ صفحات وصفحات من الأوراق.. لكنه قبل ذلك قد ملأ صفحات حياتي واستقر في أعماق قلبـــي..

Twitter: @ketab_n

وفي الختام، لا أستطيع أن أقول لك وداعاً.. ولكنني أقول لك: إلى اللقاء القريب. كما كان يودعني حبيبي عندما نفترق.. وأرجو أن تسمح لي الظروف بأن أراك في أقرب وقت إنشاء الله...

قُبلاتي إلى الحبيبة وابنة الحبيب (مروة).

تقبل تحياتي

(توقيع)

هدى حسن

1992/1/22م

Twitter: @ketab_n

حَسَن مُطْلَك

كِتَابُ الحُبّ

ظِلالهن على الأرض

كتابة حُرّة / مذكرات

من بين التجارب العاطفية التي تخللت الحياة القصيرة للكاتب العراقي الراحل حسن مطلك (1961-1990)، ثمة تجربتا حب رئيسيتان أثرتا في مجرى حياته وإبداعه ومواقفه وهزتاه بقوة وصدق، وهنا بعض شهادته عن ذلك حيث يقول: «أعترف أنني أتحوّل إلى مجنون عندما أُحب، لأنني لا أعرف حالة الوسط والتردد.. ولأن المسألة خارجة عن طوع يديّ، ولأنها خارجة عن قدرة عقلي في التحكم بها.. لقد جُننتُ بكِ يا مركز القلب.. وهذه شهادتي». وعنون هذه الشهادة أو المذكرات بـ«كتاب الحب» وقسمه إلى: «ظِل الباشق على الأرض» و«ظِل القمر على الأرض» حيث تبرز في هذا الكتاب قدرة حسن مطلك اللغوية وأسلوبه المتميز في التعبير عن العاطفة مثلما في عيش وفهم الحب ذاته، كما نجد بين السطور آراء له في المرأة عموماً وموقفه المناصر لها. إضافة إلى آراء بالكتابة ذاتها حيث يقول «أنا والكتابة شيء واحد».

نعيش مع هذا الكتاب أنواعاً من حالات ومفردات ولحظات الحب؛ شوق، لهفة، انتظار، مواعيد، لقاءات، قوة، ضعف، ابتعاد، صبر، تضحية، نصيحة، تفاهم، تحليل، تأمل.. إلخ من مزيج مشاعر إنسانية يعبر عنها الكاتب بشكل بالغ الدقة والجمال، وهذا من بين الدوافع التي حدت بنا إلى اقتحام خصوصياته ونشرها، إضافة إلى كون: أن حسن مطلك قد صاغ شخصياته الأدبية عن طريق استيحائها من شخصيات حقيقية عاش وتفاعل معها وكان يوظف العديد من مقاطع يومياته في نصوصه، كما في روايتيه المعروفتين «دابادا» و«قوة الضحك في أورا» وشخصيات العديد من قصصه القصيرة، وقد أشار هو إلى ذلك في أكثر من موضع، الأمر الذي سينفع الباحثين والدارسين والمتتبعين لأدبه وسيرته ويعينهم على استيضاح المزيد عن شخصياته وأبعادها ومن ثم طبيعة أسلوبه في التوظيف الأدبي للمعطيات الشخصية الواقعية.

د. محسن الرملي

• صدر للمؤلف أيضاً:

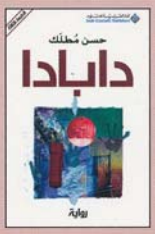

ISBN 978-9953-87-627-6
9 789953 876276

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com